اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

حنفى المحلاوى

الأيام الأخيرة في حياة هؤلاء









..... لحظات الميلاد نفسها هى التى تدفع الإنسان إلى نهايته التى لا يعرف مداها أو منتهاها .... فكيف دفعت هذه اللحظات بعض المبدعين إلى تلك النهايات؟

يقدم الأستاذ حنفى المحلاوى فى هذا الكتاب وصف الأيام الأخيرة فى حياة خمسة من عظماء الأدب و العلم و الفن فى عصرنا الحديث، مارا فى ذلك بكل الأحداث المؤثرة فى حياتهم و برحلة العطاء الفنى و الأدبى و العلمى الذى تركوه ليثرى من بعدهم العديد من الأجيال.

أحمد شوقى ... عباس العقاد ... طه حسين ... توفيق الحكيم ... بيرم التونسى.

قامات شامخة أسماؤها تتحدث عن نفسها كما يطمح المؤلف فى الحديث عنها.



٤٠٨٣١٩/٠١





سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٧٦٢]

رئيس مجلس الإدارة

كمال محجوب

مدير التحرير
أسامة عز الدين

هيئة التحرير
عصام عبد الجليل
ياسر محمد على
على محمد حاج
نرفانا محمود
أحمد عفيفى

مدير تنفيذى
محمد البحيرى

مدير فنى
أمانى والى
عصمت أحمد

مشرف فنى
شريف رضا

تصميم الغلاف
سارة شريف

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع النظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩- E-mail: maaref@idsc.net.eg

حنفى المحلاوى

الأيام الأخيرة
فى حياة هؤلاء



اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين

دار المعارف

أحلام شهرزاد - العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

(١) أحمد شوقى
لم يمت فى حادث سيارة!

كادت الحيرة أن تضنينا وتصيبنا فى مقتل.. وكان من أعظم مصادر تلك الحيرة التى دبت فى النفس.. هو البحث عن وسيلة أو طريقة موفقة فى اختيار وترتيب الأدباء والمفكرين والفنانين للحديث عن تفاصيل الأيام والساعات الأخيرة فى حياتهم.. لذا فقد كثرت الأمثلة وأحاطت بنا الاستفسارات بعدما استعرضت الأسماء المرشحة والتى وقع عليها الاختيار لتكون ضيوف أوراق عظماء الأدب والفكر!

وكانت بالفعل حيرة شديدة. ومن المؤكد أن غيرنا كان سوف يقع فيها!!.. لأن هالات العظمة كثيرا ما تخرص الألسنة وتصيب النفس بالقلق.. كما يتصور ذلك الباحث عن الحقيقة فى سير الخالدين والعظماء!

وبعد عدة مداولات.. كان طرفاها العقل والأوراق، وقع الاختيار عن يقين على أمير الشعراء أحمد شوقى، لكى يتقدم صفوف هؤلاء العظماء.. الذين نسعى من أجل الاقتراب من أيامهم

وساعاتهم الأخيرة قبل الرحيل.

ومما جعل كفة أحمد شوقى تميل إلى المقدمة. القناعة الشخصية التى استراحت لها نفس الكتاب دون الدخول فى ذكر تفاصيل ومبررات قد نختلف ونتفق عليها..!

* * *

إذن سوف نصاحب ويصاحبنا أمير الشعراء أحمد شوقى- ومنذ هذه اللحظات- فى رحلة الأيام والساعات الأخيرة التى ننشدها بصدق.. وكما هو حاصل من قبل..وعن إيمان ويقين ومعرفة أيضا، فإن الأيام الأخيرة أبدا لاتنشأ فى حياة الإنسان من فراغ.. ولايكون لها مقدمات. بل العكس هو الصحيح.. ذلك لأن الإنسان حياته مربوطة أحداثها بعضها البعض كل حدث فيها بطبيعة الحال، يؤدى إلى الآخر.. سواء شاء ذلك الإنسان أم رفض.!

ونحن على يقين أيضا بأن الأيام الأخيرة فى حياة الإنسان على الأرض تبدأ بداية فعلية منذ ولادته.. ولو اتبعنا هذه المقولة لاحتاج الحديث عن كل عظيم إلى كتاب أو أكثر!.. لكننا ومن أجل تحقيق وحدة المنهج وهدف هذه الأوراق.. نلجأ فقط إلى إعطاء مجرد إشارات ضوئية لبدايات الإنسان العظيم منذ ميلاده

ومثل ذلك لأهم الأعمال فى حياته دون تفصيلها.. ذلك لأن شاغلنا الأكبر يكون هو الوقوف لأكبر فترة ممكنة بجوار سرير العظيم نراقب حركاته وسكناته من قبل أن يسلم روحه لله.. ويخرج من عالمنا محمولاً فوق الأعناق، فى طريقه إلى القبر! !

* * *

ولسنا فى حاجة إلى أن نعدد الأعمال الأدبية العظيمة التى أهلت شاعرا عظيما مثل أحمد شوقى ليكون من بين عظماء هذه الأوراق.. هذه الأعمال التى ظلت وستظل من العلامات المضيئة والبارزة فى مسيرتنا الأدبية العربية.. برغم ما فى ذلك من خلاف بين النقاد.

ولن نقول فى هذا السياق مثلما قال الكاتب الصحفى الراحل مصطفى أمين من أن شوقى، كان فقط: شاعرا للملوك والأمراء.. لذا عندما مات خرج فى وداعه العديد من هؤلاء.! !

كما لن نقول مثلما قال العلامة الكبير الدكتور شوقى ضيف من أن أمير الشعراء، لم يغضب لوطنه، ولم يغضب لشعبه، وإنما غضب لأميره.! !

ويبدو أن أصول شوقى التركية وتربيته الأولى فى أحضان قصر الخديو إسماعيل وارتباطه بأولاد هذا الخديو وأحفاده هى التى جرت عليه هذه الأقاويل.. ومع ذلك كان لشوقى مواقف وطنية

عديدة.. استطاع الناقد وأستاذ الجامعة الطبيب الدكتور مصطفى الرفاعى أن يبين لنا بالصوت والصورة وبالكلمة العديد من تلك المواقف فى أحد كتبه عن أمير الشعراء.

وعلى أية حال.. وحتى لا نبتعد كثيرا عن حديث الأيام والساعات الأخيرة فى حياة شوقى تعالوا..نتتبع مسيرة هذه الساعات منذ ولادته فى شهر أكتوبر من عام ١٨٦٨ وحتى رحيله عن عالمنا فى شهر أكتوبر أيضا عام ١٩٣٢، وكان يبلغ من العمر آنذاك، أربعة وستين عاما، امتلأت جميعها بالمواقف الساخنة فى حياته.. ما بين السيف والقلم والترجمة والشعر والمسرح والسياسة أيضا. !

وتقول سطور تاريخ حياة أمير الشعراء إنه ولد بالقاهرة، وأن تاريخ ميلاده المدون فى شهادة الليسانس التى حصل عليها هو عام ١٨٧٠. وأحمد شوقى شأنه فى ذلك شأن العديد من عظماء مصر، سواء فى السياسة أو الأدب أو الفن.. الذين يدور الخلاف باستمرار حول يوم ميلادهم.. وتوفى أحمد شوقى فى الساعات الأولى من صباح يوم ١٤ أكتوبر عام ١٩٣٢..وكان الفارق الزمنى بين أكتوبر الذى ولد به والآخر الذى رحل فيه حوالى أربعة وستين عاما.

وتعلم شوقى فى مكتب الشيخ صالح فى عام ١٨٧٣ ثم فى مدرسة المبتديان ثم المدرسة الخديوية وتخرج فيها عام ١٨٨٣.. وهو نفس العام الذى انتهت فيه ثورة عرابى بالهزيمة النكراء التى ألحقت به وبقواته من الجنود المصريين.. وهو العام نفسه تقريبا الذى استقرت فيه قوات الاحتلال البريطانى فى مصر. وفى عصر الخديو توفيق. !

وعندما تخرج شوقى فى المدرسة الخديوية كان يبلغ من العمر ١٥ عاما. حيث أظهر تفوقا فى الدراسة فمنحه الخديو مجانية التعليم. بعد ذلك درس سنتين فى مدرسة الحقوق. ثم التحق بقسم الترجمة بالكلية نفسها فى عام ١٨٨٥ ولمدة سنتين.. حصل بعدها على الشهادة النهائية فى فن الترجمة فى عام ١٨٨٧.

وكان شوقى يتقن اللغتين الفرنسية والتركية.. ثم اللغة الإسبانية التى تعلمها فى منفاه، الذى أقام به منذ عام ١٩١٥ وحتى عام ١٩٢٠، وقد سافر قبل ذلك أيضا إلى فرنسا فى عام ١٨٨٨ وتعلم فى جامعتى مونبيليه وباريس لمده ثلاثة أعوام ثم أخيرا عاد إلى مصر فى عام ١٨٩٣.

وتعود أصول أسرة أحمد شوقى - كما سبق وذكرنا - إلى الجذور التركية، حيث كان جده أحمد شوقى قد حضر من تركيا

فى عصر محمد علي.. ولإجادته التركية والعربية عيّنه محمد علي أمينا للجمارك المصرية بعدما ضمه إلى حاشيته..

أما جد شوقى لأمه فهو "أحمد حليم النجده لى" الذى جاء إلى مصر هو الآخر شابا فى عهد إبراهيم باشا.. تاركا بلدته "نجده".. وقد تدرج آنذاك فى المناصب حتى أصبح وكيلا للخاصة الخديوية فى عهد إسماعيل.

* * *

ومن الروايات التى ارتبطت بيوم ميلاد شوقى.. أنه بعد ولادته مباشرة اصطحبته جدته إلى قصر الخديو إسماعيل الذى رآه آنذاك وكان بعده مشدودا إلى السماء فبذر الخديو بذرة من الذهب حتى يجعل الطفل أحمد شوقى ينظر إلى الأرض. كما عاش شوقى آنذاك أيضا فى جو من الأبهة التى كانت تخص بالأمراء وأسرة الخديو، فتعرف إلى كبار القوم وكان من بينهم على باشا مبارك الذى عين والد شوقى بالخاصة الملكية.. ثم ألحق شوقى نفسه فى هذه الوظيفة فيما بعد.!

كما عاش أحمد شوقى طوال حياته فى كنف الأسرة الحاكمة.. خاصة أيام حكم الخديو إسماعيل وحفيده عباس حلمى الثانى.. الذى ظل يعيش فى رعايته حتى تولى السلطان حسين كامل حكم

مصر فأصدر أمرا بنفى أحمد شوقى خارج مصر فى عام ١٩١٥.
وهى الفترة التى قضاها فى إسبانيا هو وعائلته لمدة ٥ سنوات!
ويقول بعض المؤرخين إن أمير الشعراء ظل يسخر أشعاره لمدح القصر والخديو حتى تم نفيه إلى إسبانيا حيث عرف فى المنفى المعنى الحقيقى للوطن وخرج شعره من ميدان المديح وذكر الفضل والإنسان إلى مناجاة الوطن.. ودليلهم إلى ذلك مجموعة القصائد التى كان يبعث بها إلى صديقه الشاعر حافظ إبراهيم.. حيث كان يناجى فيها وطنه. ومن هذه القصائد.. ما جاء من أبيات ذكر فيها شوقى:

يا ساكن مصر إنا لانزال على	عهد الوفاء وإن غبنا مقيما
هلا بعثتم لنا من ماء نهركمو	شيئا يبل به أحشاء صادينا

ويحلو للكاتب الكبير مصطفى أمين - بما لديه من قدرة على الغوص فى أعماق حياة المشاهير ومتعة فى كشف أستارهم وأسرارهم - أن يبصرنا بما هو بالفعل مستور خلف الجدران فيقول عن نشأة أحمد شوقى وبعض التواريخ فى حياة أجداده:
كانت علاقة شوقى بعباس حلمى قبل ولايته العرش فى مصر.. علاقة صداقة وحب حقيقى.. وكان شوقى فى طفولته يتردد على قصر عابدين وكانت جدته إحدى جاريات الخديو إسماعيل

جد الخديو عباس واشتراها الخديو بمائة جنيه ذهبا.. وكانت يونانية تعلمت فى القصر اللغة العربية.. ثم أعتقها وزوجها لمترجمه "على أحمد بن حليم النجدة لى" وكانت الجدة اليونانية مغرمة بحفيدها أحمد شوقى حتى إنها ذهبت تحمله على كتفيها إلى قصر عابدين.

ويؤكد مصطفى أمين على ما ذكره أحمد شوقى فى مذكراته عن واقعة الذهب الذى نشره الخديو إسماعيل فى حضرة جدته.. فيقول: إن هذا هو سر بيت الشعر الذى يقول فيه شوقى:

أأخون إسماعيل فى أولاده وقد ولدت بباب إسماعيلا

وكان الطفل شوقى يلعب مع الأمير الصغير عباس فى طفولته فى حديقة قصر القبة، وعندما حصل على ليسانس الحقوق من باريس عينه موظفا فى قصر عابدين.. ولم تنقطع صلة شوقى بالخديو عباس يوما واحدا طوال حكمه.. كان يقابله كل يوم تقريبا.. وكان يطرب لقصائده فى مدحه وفى الدفاع عنه..

وقد وعده الخديو بأن يطلب من السلطان منحه رتبة الباشوية.. ولكن الإنجليز خلعوا الخديو عباس من العرش قبل أن ينفذ وعده.

ولا ننسى أن نتحدث فى هذا السياق عن حصول أحمد شوقى على رتبة أمير الشعراء.. وهناك خلاف كبير بين المؤرخين حول واقعة حصوله على هذه الرتبة.. لكن أكثر الروايات شيوعا.. ما قيل بإن المعجبين بأشعار شوقى فى كل البلاد العربية قد اتفقوا بعد عام ١٩١٩ على تنصيبه أميرا للشعراء بعدما فشل فى الحصول على رتبة الباشوية حتى أيام الملك فؤاد.. وكان من قبل يلقب بـ "شاعر الأمير".

وقد ترأس لجنة التكريم هذه الزعيم سعد زغلول، خاصة بعدما انضم شوقى إلى الهيئة الوفدية وترشيحه عضوا بمجلس الشيوخ عن الصحراء الشرقية.. وقد كتب عباس العقاد بهذه المناسبة سلسلة مقالات فى جريدة "البلاغ" لسان حال سعد زغلول آنذاك يهاجم فيها فكرة تنصيب شوقى أميرا للشعراء، وقابله سعد زغلول منتقدا إياه.. وفى هذه المقابلة عرفه بأنه يرأس لجنة التكريم.

وقال له العقاد يومها قولته المشهورة: "أنت زعيمى فى السياسة والوطنية ولكنك لست زعيما فى الشعر" !!.. كما قال أيضا: "إن الشعر ليس إمارة يعين أميرها.. بل هى جمهورية ينتخب رئيسها".

وهناك بخلاف ذلك: العديد من الأمور التى يجب التحدث فيها.. وهى تقترب كثيرا من حياة أمير الشعراء شوقى.. وذلك من قبل الوقوف على تفاصيل الأيام الأخيرة فى حياته.. من ذلك على سبيل المثال.. الحديث عن عاداته وتقاليده.. وبعض صفاته.. وأيضا حالاته النفسية حين كان يقرض الشعر.

لقد كان شوقى يخاف ركوب الطائرات.. ويبدو أن صديقه الموسيقار محمد عبد الوهاب قد حمل عنه نفس الخوف. إذ كان هو الآخر لايركب أبدا الطائرات فى تنقلاته الخارجية.. وكان يفضل عليها البواخر.

وأيضا كان شوقى يرفض أن يضع الكرافتة حول عنقه، وكان يضع بدلا منها البابيون.. كما كان يخاف عبور الشارع.. ولهذا كان يقف طويلا قبل أن يعبر من الرصيف الأيمن إلى الرصيف الأيسر.

وكان يقول لمن حوله إنه يتوقع أن تصدمه سيارة فى يوم من الأيام، وتحققت نبوءته وصدمته سيارة فى لبنان، ولم يكن يومها يعبر الشارع وإنما كان يجلس فى سيارة وصدمته سيارة أخرى قادمة بسرعة.. ونجا من الموت بأعجوبة وإن كان قد جرح فى عينه.. وكان طوال حياته - على حد قول المقربين إليه - يشكو من رمد عينيه.. وكانت أمراضه التى يشكو منها الكبد وضغط الدم وتقلص الشرايين.

ومما كان يضايق أحمد شوقى النقد والنقاد، فقد كان كثيرا ما يسارع إلى مقاطعة من يهاجم شعره فلا يصافحه إذا رآه فى مجلس. وإذا كان فى مجتمع ودخل الناقد عليه يبادر أحمد شوقى بالخروج ويغادر المكان.

ويؤكد العديد من النقاد فى هذا السياق.. أن أشد أعداء أحمد شوقى.. بخلاف العقاد كان إبراهيم عبد القادر المازنى وعبد الرحمن شكرى لأنهما تجرءا وهاجماه فى شبابه وفى مجده.!

أما عن كيف كان ينظم الشعر.. فقد ذكر أصدقاؤه أنه كان عندما يتهيأ لنظم أى قصيدة، يبادر بشرب ٥ بيضات نيئة ثم يغمغم وينساب الشعر من شفتيه.. كما كان ينظم شعره فى أى مكان.. سواء فى الشارع أو فى عربة الحنطور، فى قطار السكة الحديد أو فى عربة الترام. وكان دائما يدير القصائد فى ذهنه ثم يشرع بتدوينها على كراسة أو على غلاف كتاب أو علبة سجائر.

وكان الشعر يهبط عليه كالوحى. ويقول كل المحيطين به: "إن شوقى لم يكن أبدا يلقى أى قصيدة بصوته فى الاجتماعات العامة".. وكان أحيانا يدعو الصحفى المعروف فكرى أباظة أو السياسى الكبير حفنى محمود لإلقاء قصيدته.

ويروى لنا كل من الموسيقار الراحل محمد عبد الوهاب أقرب أصدقاء أمير الشعراء.. و الكاتب الصحفى كامل الشناوى.. كيف كان يقرض الشعر؟!

يقول عبد الوهاب: كان شوقي يكتب القصيدة ثم يقرأها على المقربين إليه من أصدقائه.. وكان وهو يقرأ القصيدة ينظر إلى الموجودين نظرات حادة حتى يلمس مدى تأثرهم بها.

أما الشاعر والأديب والصحفى الراحل كامل الشناوى فقال في تعليقه على نفس الموضوع: لقد رأيت شوقى وهو يسجل خواطره.. كان يخيل إلىَّ أنه مجنون أصيب بغتة بنوبة صرع.. كان يجلس بيننا ثم يقفز إلى مكان آخر ويخرج من جيب سترته علبة السجائر ويكتب فيها كلمات.. ويعود إلينا إذ يلحق به التعب والعرق يتصبب من جبهته، وعيناه مغرورقتان بالدموع وأنفاسه لاهثة.

وكانت هذه الحالة تنتابه طيلة معاناته في نظم إحدى قصائده، فإذا فرغ من تسجيل خواطره ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم، وضع رأسه بين كفيه وأملى القصيدة كاملة على أحد المقربين.. ثم عاد إلى مراجعة الأوراق والقصاصات التى سبق أن سجل فيها هذه الخواطر.

ويقول الأديب أحمد محفوظ أحد شهود عيان الأيام الأخيرة في حياة شوقي.. إنه بعد إصابته بمرض تصلب الشرايين تغيرت عاداته.. فلم يعد يدخن، ولم يعد يشرب، ولم يعد يسهر إلى الثانية والثالثة صباحا، بل اقتصر على الحادية عشرة مساء.

كما لم يعد يأكل الأطعمة الدسمة في الظهيرة والمساء.. ليس هذا فقط.. بل انكب بقوة على النظم والقراءة وكأنما كان يريد أن ينسى هموم مرضه.. وكان يعكف آنذاك على كتب الصوفية.. كما اقتصرت زياراته على بيت أحد أصدقائه وهو دار إسماعيل شيرين.

ويبدو أن إحساس أمير الشعراء بالرحيل كان قويا في هذه الفترة بدليل أنه كان يحرص في الشهور الأخيرة من هذه الحياة على حضور سرادقات العزاء.. لمن يعرفهم ومن لا يعرفهم أيضا.. وقد تطوع بعض أصدقائه لتسجيل أهم اللقطات في أيامه الأخيرة.. وكان من بينهم الكاتب الصحفي مصطفى أمين الذي قال فيما سجله:

خرج أمير الشعراء يوم ٤ أكتوبر عام ١٩٣٢ في الساعة الحادية عشرة صباحا قاصدا مكتبه في شارع جلال، وهو الشارع الذي توجد فيه الآن جريدة الجمهورية، والمتفرع من شارع عماد الدين (محمد فريد)[1].

---

(١) وهو المقر القديم لجريدة الجمهورية حيث إن مقرها الآن شارع رمسيس.

وبعد أن راجع حسابات دائرته مع سكرتيره، عاد إلى داره في الجيزة وتناول الغداء واستراح.. ثم ذهب إلى محل "صولت" الحلوانى بشارع قصر النيل وجلس مع صديقيه محمود فهمى النقراشي أفندى والدكتور محجوب ثابت.

ثم ذهب إلى عيادة الدكتور محمد مختار عبد اللطيف، حيث قال للطبيب: أنا أشعر بألم فوق قلبى، وكشف عليه الطبيب وقال له: ستعيش مائة سنة.. وقال له شوقي: إننى سأحتفل بعد ١٢ يوما ببلوغي سن الثانية والستين. قال له الدكتور مختار: معنى ذلك أن أمامك ٣٨ سنة أخرى لتعيشها!

وخرج من عيادة الدكتور متوجها إلى دار سينما "متروبول" وراء محلات شيكوريل. وجلس فى مقاعد الترسو "أى فى الدرجة الثالثة"!! وشاهد فيلما بوليسيا ثم خرج من السينما، ومشى على قدميه إلى جريدة الأهرام، وكانت آنذاك فى شارع مظلوم بباب اللوق، وأمضى بعض الوقت مع داود بركات رئيس التحرير، ثم ركب سيارته إلى دار الجهاد بشارع ناظر الجيش وراء ضريح سعد، وهناك أمضى بعض الوقت يضحك مع توفيق دياب والمحررين. ثم عاد إلى بيته بعد منتصف الليل.. خلع ملابسه وقرأ فى مجلة روز اليوسف والمصور والهلال.. ونام فى

سريره وأغفى. ومات وهو نائم في الساعة الرابعة صباحا.

أما سكرتيره أحمد عبد الوهاب فقال فيما سجله في مذكراته في شهادته: كنا وقتئذ في آخر يوليه عام ١٩٣٢، ولم يجف دمعنا بعد على شاعر النيل. ثم مضت بعد وفاته ثلاثة وثمانون يوما، وفي صبيحة اليوم الرابع والثمانين، وهو يوم ١٤ أكتوبر، طوى مصر وسائر الأقطار العربية نبأ فزعت فيه دولة الأدب بآمالها إلى الكذب، لأنه كان نبأ مفاجئا، ولأنها كانت تتمنى لشوقي حياة طويلة ولها من نبوغه ثروة جديدة.

وقبل أن يموت بأيام عاد في المساء إلى داره "كرمة بن هانئ" فلما دخلها وقف بالحديقة قائلا لي: "ترى.. كم قبرا تسع هذه الدار؟!

فأصابتني الدهشة وقلت له: ولماذا هذا السؤال يا باشا؟!!..

فقال: لاشيء، لكنه خاطر مر بنفسي. فذكرت الموت، وطالما خالجتني ذكراه في هذه الأيام، فهبأ أنني مت فماذا يكون؟!

– عشت لنا يا باشا.. فأنت أمير الشعراء، ولا روعت فيك مصر، ولا فُجع بك الشرق العربي.

– لا تخف فليس بالمصيبة العظمى وقد يكون منجاة من حسد حاسد أو حقد حاقد، والقبر أبقى من هذه الدار وهو لا يشغل

غير عشرة أمتار، أما هى فقد شغلت ٥ آلاف متر، فلو بنيت فى مكانها قبورا لاتسعت لـ ٥٠٠ قبر، أليس كذلك؟!

فأسقط فى يد السكرتير وعاد شوقى فاستأنف كلامه فقال:

- أى أم كرمة بن هانئ تشغل من الأرض ما يكفى ثلاثة آلاف من "الموتى".. فما أعظم طمعنا فى دار الفناء وقناعتنا فى دار البقاء.

- أراك اليوم تذكر الموت، وقد نهيتنا عن ذكره فى مجالسك وتمنيت لنا منه النجاة!

- نعم ولكنى ما خفته يوما.. وما ذممته قط ولالذت منه بالفرار، ولانقمت على الأقدار.. وردد قائلا:

أنا من لا يرى الفرار من الموت ومن لا يرى من الموت بدا

إنما الموت منتهى كل حى لم يصب مالك من الملك خلدا

ثم أضاف قائلا: إننى أشعر بتعب هذه الأيام وقد استهلك جسمى الضعف، وعصرتنى الشيخوخة، فما أبقت منى غير مخ فى عظام وروح فى رمام!.. وما أحسب أنى مقيم طويلا، فيا ترى على أية الحالتين يأتينى الأجل، أبعد الرقاد أياما أم فى غفلة من النفس وسنة من الحس؟!

وأضاف سكرتير أحمد شوقى الخاص عن أخريات أيام هذا العظيم:

وكنا فى أوائل أكتوبر عام ١٩٣٢ فاعتزمت جمعية القرش إقامة احتفال فى ١٤ أكتوبر من الشهر نفسه لافتتاح مصنع الطرابيش، ورغبت إليه أن يتوج هذه الحفلة بقصيدة من قصائده.. وبالفعل نظم لها إحدى القصائد..

وفيها أيضا تنبأ بموته وبرحيله..

وما درى أحد أن أمير الشعراء سيغادر عالم الشقاء فى اليوم الذى تلقى فيه آخر قصيدة له وهو على فراش الموت.

ففى اليوم السابق لهذا اليوم أحس شوقى بتحسن فى صحته. فطابت نفسه لصباح ذلك اليوم الذى ذاق فيه من متاع العافية والصحة مالم يذقه منذ سنوات.

وفى منتصف السابعة مساء هذا اليوم ركب أمير الشعراء السيارة.. وذهب للرياضة فى مصر الجديدة.. وفى عودته مر بأحد المطاعم فتناول فيه العشاء ثم توجه إلى دار الجهاد الصحفية. وعلم صاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ توفيق دياب بقدوم أمير الشعراء فانتقل لاستقباله، فقدم له شوقى بك سيجارة، ولاحظ الأستاذ دياب أنه يسعل سعالا خفيفا.. ومكث شوقى إلى نحو الساعة الحادية عشرة فى جريدة الجهاد ونهض قائلا: "إنى ذاهب إلى دارى لأستريح وألتمس شيئا من الدفء".

وركب السيارة حتى وصل إلى داره بالجيزة وقبل أن يدخل غرفته وقف برهة في الحديقة ودار بيننا الحوار السابق عن القبور والموت.. فسألته: يا باشا لقد ذكرت لى أنك بصحة جيدة فلماذا هذا الوهم المخيف؟!.. فقال لى: لا شىء.. لا شىء.. اذهب ونم.

وأوى أمير الشعراء إلى نومه، وعندما أراد النوم، اعتراه أرق وسعال. فتدثر حتى دفئ. لكنه لم يسكن إلى الدفء. ولم يطمئن إلى الفراش، وشعر بآلام فى صدره ثم ضيق فى تنفسه فأيقظ الخادم وأمره أن يقوم بإسعاف خاص بالتصلب الشريانى.. فلم يفده هذا الإسعاف فأمره أن يستدعى الدكتور جلاد، وأن يوقظ أسرته..

ويضيف أحمد عبد الوهاب سكرتيره الخاص: وكان الموت يسرع إلى أمير الشعراء الخطى، وينشر أجنحته على السرير. وعندما عاد الخادم فوجد سيده يجود بنفسه فطمأنه إلى حضور الطبيب فقال شوقى:

– لا أمل بعد الآن.. إن أمرى انتهى، فسلام على أولادى وأصدقائى!!

عندئذ حضرت السيدة زوجته وأولاده، فرأوه فى النزع الأخير فارتاعوا. وجاء الطبيب فوجد الشاعر العظيم يجود بأنفاسه

الأخيرة حتى الساعة الثانية بعد منتصف ليلة الجمعة ١٤ أكتوبر عام ١٩٣٢.. وقد أوصى أن يكتب على قبره هذين البيتين من قصيدته "نهج البردة":

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى وكيف لا تسامى بالرسول سمى
إن جل ذنبى عن الغفران لى أمل فى الله يجعلنى فى خير معتصم

ونتوقف عند آخر الشهادات التى صورت لنا الساعة الأخيرة فى حياة أمير العظماء أحمد شوقى.. وهذه الشهادة تأتى هذه المرة على لسان ابنه الأكبر حسين شوقى الذى كان يراقب عن كثب ساعات رحيل أبيه.. قال حسين شوقى: إن عامى ١٩٣١و١٩٣٢ هما العامان اللذان اشتغل أبى فيهما أكثر من أى وقت آخر فى إنجاز رواياته التمثيلية. وكأنه كان يحس بدنو أجله.. ففى هذه الحقبة أتم مسرحيات "مجنون ليلى" ثم أعاد نظم "على بك الكبير" كما ألف "قمبيز" و "الست هدى".. وشرع فى وضع رواية عن "محمد على الكبير". ولكن هذا الاجتهاد كان مع الأسف على حساب جسمه الضئيل الذى ناله المرض. وقد أمره الأطباء بملازمة الحجرة إذ ذاك، ومنعوه من معظم متعه، لذلك صار سريع التهيج. فإذا قال له أحد الزائرين إن صحته ليست على ما يرام أو أن ملامح التعب تبدو عليه، كان لا يسمح لهذا الزائر بزيارته مرة ثانية!!

وكان لنا قريب ساذج إلى حد بعيد. فلما عرف أن أبى يتضايق ممن لا يطمئنه على صحته من زائريه، دخل عليه يوما ثم وضع كفه على جبين أبى قائلا: أظن يا سعادة البيك أنه لا توجد لديك حمى بتاتا. فارتاح أبى إلى هذا. إذ كان يشك فى وجود شىء من الحمى.. وليتأكد من ذلك وضع مقياس الحرارة فى فمه، وبعد دقائق قليلة أخرجه ثم ناوله إلى هذا القريب ليقرأ له درجة الحرارة لأن نظر أبى كان ضعيفا ولا يستطيع أن يحقق فى أرقام المقياس الصغير.. تأمله صاحبنا مليا ثم قال: ماشاء الله.. ماشاء الله.. إن حرارتك ٣٣ فقط يا سعادة البيك!!.. فصاح أبى مغضبا. أيها الجاهل لو كانت حرارتى ٣٣ كما تدعى لكنت ميتا الآن!

فى ذلك العهد كنا نخفى عنه ما كان يظهر فى بعض الصحف من نقد، خاصة لرواية "قمبيز" حتى لا تضايقه وهو فى مثل هذه الحالة، لأنه كان حساسا جدا فيما يتصل بمؤلفاته بخاصة شعره الذى كان فخورا به إلى حد بعيد.

وكانت تسليه خلال هذه المدة إلى جانب اجتهاده فى إنجاز رواياته: القراءة التى يقوم بها بدلا منه سكرتيره أحمد أفندى عبد الوهاب. وكان يميل إذ ذاك إلى كتب الفلسفة الإسلامية..

كما لم يمنعه اعتكافه من أن يلبى رجاء أية جمعية تطلب منه قصيدة لغرض وطنى أو خيرى. وآخر قصيدة نظمها فى هذا السبيل، قصيدته فى مشروع القرش.. إذ كانت تلاوتها يوم وفاته.

وكان أبى يحتفظ فى أيام اعتكافه الأخيرة "بملبس" فى درج مكتبه لكى يستدرج به إلى حجرته حفيديه أحمد وبوله وهى إقبال ابنة أختى الوسطى.. وكان يسمى هذا الملبس الطعم، مرددا بقوله: أتظنون أن هؤلاء الشياطين كانوا يحضرون لزيارتى لولاه؟! كلا إذ بالله ما مصلحة أمثالهم فى ممازحة شيخ هرم مثلى؟!

وفى يوم وفاته –هكذا يواصل حسين حديثه– فى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٢، خرج أبى يتريض بالسيارة مع سكرتيره فى ضاحية مصر الجديدة وقد تحدث معه يومها فى موضوعات دينية، وقد سأله بوجه خاص، وكأنه قد أحس بدنو أجله، عن التوبة والغفران وهل هو يتذكر نصا صريحا عنها فى القرآن الكريم؟!

فإن ما ملأه من ذاكرته لا يكاد يختلف عما سجله فى بضعة أيام متفرقة إلا فى كلمة، أو كلمتين فقط.

ويضيف كامل الشناوى: كان شوقى مؤمنا بأنه شاعر له أعماق وجذور.. كما كان يؤمن بأنه سيعيش بشعره آلاف السنين، ولم

يكن يخفى هذا الإيمان. بل عبر عنه فى إحدى قصائده حين قال:

وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت فتعود سيرتها إلى الدوران

وفى محاولة علمية جديرة بالذكر والتسجيل قام بها أساتذة من كلية الآداب جامعة القاهرة.. استطاعوا أن يسجلوا أعمال هذا العظيم فى ببلوجرافيا إلكترونية دخل فيها ولأول مرة الكمبيوتر.. بالاشتراك مع صديق عمره شاعر النيل حافظ إبراهيم.. وقد جاء فى هذه الببلوجرافيا، أن عدد أبيات الشعر غير المسرحى التى كتبها شوقى بلغ ٢٤ ألف بيت فى ٨٥ قصيدة. أما عدد الرسائل الجامعية التى تناولت حياة أمير الشعراء وشعره فبلغت حتى عام ١٩٨٣: ٣٥ رسالة جامعية منها عشر رسائل متخصصة فى مختلف جامعات مصر.

* * *

وكما هو معروف لنا جميعا.. فإن مظاهر الحياة وفتوتها لا تدوم أبدا، وكلما زحفت السنون بالإنسان مهما كان ثقله ومكانته فهو حتما ذاهب إلى زوال.. وتلك هى حكمة الحياة، وأيضا إحدى معجزات الخالق العظيم..

وشاعرنا الكبير أحمد شوقى.. قد عاش فى ضوء هذه القاعدة.. بل وشعر بما فيها من آلام وحسرات.. إذ بدأت بالفعل عبر واد

الرحيل وعلاماته المميزة تزحف ناحيته دون أن يستطيع بأشعاره أن يوقف زحفها!

وكلما كانت تمر عليه الأيام وتزحف على حياته السنون.. كلما كانت ساعاته الأخيرة تقترب عن ذى قبل حتى بات ينتظر الرحيل الأخير -الذى تنبأ به- كما سوف يمر علينا بعد قليل.. وكانت لهذا الرحيل علامات رأينا من الضرورى الوقوف عليها من قبل الوصول سويا إلى المحطة الأخيرة التى من بعدها اختفى أمير الشعراء عن عالمنا.

لقد ذكر معظم أصدقاء أمير الشعراء.. أنه أصيب فى أخريات سنوات حياته بمرض تصلب شرايين القلب. وهذا المرض هو الذى عجل بحياته.. وسط إهماله له.. وإقباله الشره على تناول الأطعمة بجميع أنواعها.

ويؤكد أحد هؤلاء الأصدقاء أن أمير الشعراء اكتشف هذا المرض حين أبلغه به طبيبه الخاص الدكتور حسين برسكا فى أواخر عام ١٩٣٠.

عندئذ لم يكتف بطبيب واحد لمباشرة حالته الصحية بل جمع حوله كل أطباء الدنيا لإنقاذه.. وكان من بين هؤلاء الدكتور سليمان عزمى كبير أخصائى القلب فى هذا الوقت.

والغريب أن شوقى برغم مرضه فى هذه السنوات قد تمكن وباقتدار -كما يقول ذلك النقاد- من الانتهاء من نظم أشهر وأخلد مسرحياته "مجنون ليلى" و"قمبيز".. و"على بك الكبير" التى ألفها وهو على فراش المرض.

* * *

ويقول ابنه عن آخر أيامه:

زار فى مساء اليوم نفسه الأستاذ توفيق دياب بك فى مكتبه بجريدة الجهاد، فقد كان أبى يحب الأستاذ دياب ويرتاح إلى مداعباته.. وقد توفى فى حوالى الساعة الثانية صباحا.. أيقظنى الخادم قائلا:

إن أبى تعبان وإنه أرسله فى طلبى، كما أرسله فى طلب أمى. فأسرعت إلى حجرته فوجدت أمى بجانب السرير قلقة تناديه: ما بك؟ ما بك؟!

ولكنه لا يجيب إذ كانت روحه قد فاضت.

* * *

(٢) عباس محمود العقاد
لماذا انتحرت بدرية ـ بعد وفاته؟!

منتهى القسوة أن يصاحب رحيل عظيم من عظماء هذه الأوراق.. وبما خلفوه وراءهم من أعمال عظيمة.. انتحار فتاة حزنا عليه وعلى فراقه.. وقد ظل لغز انتحارها.. بل وتفاصيل حياتها وملامح شخصيتها لغزا حائرا.. حتى بعد رحيل العقاد بسنوات.!

والتفاصيل كثيرة ومحزنة أيضا.. وتدعو للرثاء.. ذلك لأنها ارتبطت فى الواقع وكما سجل ذلك المؤرخون والعديد من تلاميذ عباس محمود العقاد.. برحيل شخصية تركت معالمها وآثارا فكرية وأدبية لازالت أصداؤها تهز أركان عالمنا العربى حتى الآن.

لقد ارتبط العقاد فى حياته بنساء كثيرات.. برغم أنه لم يتزوج.. وكان ارتباطه بهن ارتباط الأستاذ بتلميذاته إلا قليلا منهن.. وقعن فى حبه.!!

وسيرة هذا العملاق العظيم.. بل وكتبه فيها الشيء الكثير عن هؤلاء النسوة.. إلا امرأة واحدة وفتاة واحدة أيضا..

الأولى ادعت أنها تزوجت العقاد.. والثانية صرخت فى فضاء الكون قبل انتحارها بأنها ابنة عباس العقاد.!!

ولعل سبب تمسكنا بالحديث طويلا وبتفاصيل كثيرة عن هذه السيدة وتلك الفتاة التى ماتت منتحرة.. يرجع فى الأصل إلى ارتباط حقيقتهما بيوم رحيله.. بل وبالساعات الأخيرة في حياته.!

ومما يؤكد لدينا ذلك.. تلك الصورة التى كتبها أنيس منصور معبرا ولو بشكل غير مباشر عما سبق وقلناه.. عندما قال .. "وعلى السلالم تعثرت سيدة قد ارتدت الملابس السوداء وتبكى وتلطم خديها، وتمسح وجهها فى عتبات السلالم.. وتدق الباب الذى أغلق وتقول: لابد أن أراه.. انتهت الدنيا.. لا دنيا بعده.. لا حياة ولا موت.. يا خسارة.. يا رحمتك يارب.. أين هو.. أراه؟

وفتحوا الباب للسيدة "فوزية".. وأدخلوها عليه وراحت تتمرغ فى الأرض، وتخرج الأحذية من تحت السرير، وتضعها على رأسها.. وتقول: يا أرحم الناس.. من الذى يعالجنى فى إنجلترا مرة أخرى؟!.. ياليت ساقى قد انقطعت.. ياليت عمرى كان الله قد أخذه وأعطاه لك.. ما فائدة العمر بعدك.. ألف رحمة.. الجنة لك. يا عباس يا عظيم.. يا سيد الناس.. وأخرجوها وهى تقاوم وأنزلوها السلالم وأغلقوا الباب..".

وفى فقرة أخرى قال عن بقية حكاية هذه السيدة وتلك الفتاة التى انتحرت: ".. وفجأة تعالت الأصوات والصرخات، لقد عادت السيدة فوزية ومعها ابنتها بدرية.. فى السابعة عشرة من عمرها.. ودخلت بدرية وألقت بنفسها عليه. (يقصد على جثمان مولانا العقاد).. وراحت تبكى، وتصرخ فى حالة جنونية، وانكفأت على الأرض تلعق التراب تحت قدميه.. ثم تلعق أحذيته واحدا واحدا.. ثم تكشف عن قدميه وتقبلها وتصرخ: أين أنت يا بابا، أين ذهبت؟!. ثم هجمت على الزجاجات التى كان يتعاطاها وراحت تصبها فى حلقها وراحت تبتلع كل الحبوب.. ومزقت ملابسها وشعرها، وألقت بحذائها من النافذة، ونزعت من الشماعة بيجامة الأستاذ، وراحت تلف نفسها بها.. ثم أمسكت حذاء له ووضعته فى قدميها، واندفعت من الباب إلى السلم تتدحرج عليه وينزف الدم من رأسها.. ثم تختفى".

ونعرف من تفاصيل بقية قصة هذه الفتاة التى قالت إنها ابنة مولانا عباس العقاد.. أنها ماتت منتحرة حين بدأوا فى إجراءات نقل جثمانه إلى القطار المتجه إلى مسقط رأسه ومكان مولده.. إلى مدينة أسوان.!

معنى ذلك أن روحها ربما عانقت روح العقاد وهى فى طريقها إلى السماء.. وكان قد سبقها إلى عالم الآخرة.. ربما بساعات قليلة. ولا نعرف السبب في اختيار هذا التوقيت بالذات.!

ولولا إشفاق تلاميذ العقاد على أنفسهم أولا ثم على أستاذهم لكانت حكاية هذه الفتاة قد استقرت بين أوراقهم حين كتبوا مذكراتهم عن العقاد وبالتالى كانت ستصبح من أكثر الحكايات المشوقة بالنسبة لعلاقة مولانا العقاد بالنساء وبالفتيات أيضا. وبصرف النظر عن موقع أو أهمية.. أو شخصية هذه المرأة أو تلك.

كما هو معروف فإن الأسرار فى حياة الكبار.. دائما تكون من أهم مطالب الباحثين على الدوام.. أملا فى وضع نهايات مقنعة لما يسمونه على سبيل الإشاعة أو على سبيل اليقين.. وقد تعرض العقاد وقصة الفتاة المنتحرة يوم رحيله إلى شىء من البحث الجدى على أمل الوقوف على تفاصيلها.. وإن كان الذى أذيع عن هذه القصة قد تأخر لعدة أشهر.. وقد نجحت إحدى المجلات المصرية الأسبوعية فى نشر موضوع بالصور عن هذه القصة..ثم حدثنا الدكتور عبد اللطيف عبد الرحيم رئيس جمعية العقاد الأدبية السابقة بعد نشر هذا الموضوع بأكثر من ثلاثين عاما مؤكدا كل ما جاء به من حقائق. وفى حديثه إلينا أكد عدة

حقائق كان من أهمها أن العقاد بالفعل كان يتبنى طفلة اسمها بدرية، وكان عمرها آنذاك ٨ أشهر.. وأنه كان يسعده كثيرا أن تناديه باسم "بابا". كما أن هناك اثنين من أقرب تلاميذ العقاد كانا وحدهما يعرفان هذه الأسرار وهما الأديب الكبير الراحل محمد فريد أبو حديد والشاعر صديق العقاد الشخصي محمد طاهر الجبلاوى.. وقد أكد هذان الشاهدان قصة هذه الفتاة وقصة علاقتهما الخاصة بمولانا العقاد.

* * *

وأصل حكاية الفتاة بدرية التى انتحرت يوم رحيل العقاد.. هى أن مولانا كان يقيم فى بداية حياته فى ضاحية العباسية البحرية.. فى بيت متواضع وكان ذلك تقريبا فى عام ١٩١٥.. حيث كان يعمل العقاد ذو السادسة والعشرين ربيعا معلما للترجمة واللغة العربية فى مدرسة النيل الإعدادية بحى الظاهر.. وفى عام ١٩٣٥ تعرض العقاد لضائقة مالية شديدة بعد أن خرج حزب الوفد من الحكم عام ١٩٢٨.. وتوالت على مصر حكومات الأقلية التى كان دائما ما يهاجمها العقاد.. وعندما هاجم وزارة توفيق نسيم باشا.. أعلن الوفد فصله وقطع مرتبه الذى كان يبلغ آنذاك ٣٠ جنيها. فوقع العقاد فى هذه الضائقة المالية. وفى هذه

الظروف الصعبة.. عرضت عليه سيدة كانت تقيم بجواره فى منزله بالعباسية بأن تساعده فى هذه الظروف.. وبالفعل أقرضته مبلغ ٦٠٠ جنيه، ويقال فى ذلك إنها من أجل توفير هذا المبلغ.. رهنت له قطعة من مصاغها الذهبى. وكانت تلك السيدة هى أم الطفلة التى أنفق عليها كابنته تماما. وكانت بدرية تتردد على العقاد وهو يحضر لها كل طلباتها. كما كان يعطيها مصروفا يوميا!

أما حكاية فوزية.. تلك السيدة التى حكى لنا عنها من قبل أنيس منصور.. فكانت أخت الفتاة بدرية التى انتحرت بعد رحيل العقاد.

وقد جاءت آنذاك لتسأل عن أية وصية تركها مولانا بعد رحيله لابنته أو لطفلته أو لبدرية.

وحين نترك مجال الحكايات.. ونعود أدراجنا للبحث عن أهم الأحداث التى عايشها العقاد فى أيامه الأخيرة.. بل وفى الساعات التى رحل من بعدها.. كان لابد لنا من أن نلقى أولا بعض الأضواء المبهرة وغير المبهرة على بدايات حياة هذا العملاق.. وفق المنهج العام الذى ابتغيناه من قبل مع عظماء هذه الأوراق..

وعندما بحثنا عن مصادر موثوق بها للحديث عن تلك البداية.. عثرنا على كلمات سجلها مولانا العقاد بنفسه فى أحد كتبه وفيها تصوير دقيق لمسيرة حياته.. حيث قال:

"ولدت فى أسوان يوم ٢٨ يونيو عام ١٨٨٩، ولى أخوة أشقاء وغير أشقاء.. فقد كان والدى متزوجا قبل والدتى، ثم ماتت زوجته وبعدها تزوج من أمى.

وكبير أشقائى أحمد.. كان يعمل سكرتيرا لمحكمة أسوان، وعبد اللطيف هو تاجر، ولى شقيقة واحدة نحبها جميعا وهى متزوجة وتعيش فى القاهرة إلى جوارى، أما إخوتى غير الأشقاء فهم جميعا أكبر منى سنا، وبعضهم يعيش فى القاهرة والبعض الآخر بأسوان.

وقد تدرجت فى المدارس، ثم جئت إلى القاهرة للكشف الطبى عندما التحقت بإحدى وظائف الحكومة عام ١٩٠٤، وكان عمرى إذ ذاك ١٥ سنة، وكانت وظيفتى فى مديرية قنا.. ولم تكن اللوائح تسمح بتثبيتى لأننى لم أكن قد بلغت بعد سن الرشد، ثم نقلت إلى الزقازيق، ثم كنت أول من كتب فى الصحف يشكو الظلم الواقع على الموظفين، ثم سئمت وظائف الحكومة، وجئت إلى القاهرة وعملت بالصحافة، وأخيرا عينت بمجلس الفنون والآداب كما عينت بالمجمع اللغوى..".

ولقد حاول العديد من النقاد والصحفيين الاجتهاد فى إضافة بعض المعلومات عن نشأة عباس العقاد.. وهى كما سوف نرى لم تخرج كثيرا عما سجله العقاد نفسه والذى كتب لنا أيضا فى أوراقه الخاصة عن أصل عائلته.. ونسبه ونسب أمه التركية الأصل.. قائلا: "هل يعرف أحد من أين لى باسم "العقاد"؟! لا أحد طبعا.. وغير هذا أشياء كثيرة لا يعرفها الناس عني.. أشياء قد تبدو غريبة، لكننى أقولها فى هذا المقام.

أما اسم العقاد، فأذكر أن جدى لأبى كان من أبناء دمياط، وكان يشتغل بصناعة الحرير ثم اقتضت مطالب العمل أن ينتقل إلى المحلة الكبرى حتى يتخذها مركزا لنشاطه، ومن هنا أطلق عليه الناس اسم "العقاد" أى الذى يعقد الحرير.. والتصقت بنا وأصبحت علما علينا.."

وعندما يصل العقاد بحديثه عند منعطف حديث الأسرة يقول عن والده: "وإنما أتمثل أبى الإنسان فى الصورة التى رأيتها ألفى مرة بل أكثر من ألفى مرة.. لأننى كنت أراها كل يوم منذ فتحت عينى على الدنيا إلى أن فارقت بلدتى من بعد اشتغالى بالوظائف الحكومية.

وتلك هى صورته على مصلاه، يؤدى صلاة الصبح ويجلس على سجادة الصلاة من مطلع الفجر إلى ما قبل الإفطار، ليتلو سورا خاصة من القرآن الكريم ويعقبها بتلاوة الدعوات.

وكان يؤدى الصلوات الخمس فى أوقاتها، ولكن جلسته فى الصباح الباكر هى التى انطبعت فى ذاكرتى إلى هذه الساعة، لأنها كانت أول ما أستقبله من الدنيا كل صباح.."

ولم ينس العقاد فى السياق نفسه أن يحدثنا عن وظيفة والده.. فذكر أنه كان يعمل أمينا للمحفوظات بإقليم أسوان. وكانت مكتبته المصدر الأول لمعارفه التى استزاد منها على مر السنين، حتى بلغ ما قرأه مولانا وفق تقدير النقاد حوالى ٦٥ ألف كتاب فى مختلف فروع المعرفة!!

وأما عن أمه ونسبها فيقول: "لقد كانت أسرة أمى من أبويها جميعا كردية قريبة عهد بالقدوم من ديار بكر.. وياللعجب، فإن أجداد أمى جميعا قد تزوجوا فى السودان، وكان جدها لأبيها وجدها لأمها فى الفرقة الكردية التى توجهت إلى السودان بعد حادث إسماعيل بن محمد على الكبير، وهناك عاش عمر أغا الشريف قبل قدومه إلى أسوان وهو جد أمى لأبيها، وأبوها هو محمد أغا الشريف".

وبخلاف ذلك، هناك عشرات من الموضوعات الخاصة بالعقاد والتى أشار لها فيما سجله فى معظم كتبه والتى لم تأخذ برغم ذلك شكل المذكرات أو السيرة الذاتية المتكاملة.!

والمؤكد أن معظم المؤرخين والنقاد.. قد نقلوا عن العقاد ما سجله من حياته وحياة أسرته.. وإن حاول بعضهم الاجتهاد بإضافة معلومات أخرى عن نسبه وأصله وتاريخ ميلاده.. فقالوا: "إنه ولد فى مدينة أسوان فى ٢٨ يونيه عام ١٨٨٩ وتوفى ١٢ مارس عام ١٩٦٤.. مع أن الصحيح أنه توفى فجر اليوم الثانى عشر من مارس أى فى اليوم الثالث عشر من الشهر نفسه. وكان ترتيبه الثالث بين أحد عشر ابنا لأبيه الموظف الذى تزوج ثلاث مرات.!!

ولو سمحنا لأنفسنا بالاطلاع على أوراق بعينها سطرها الزمن فى كتابه الضخم سواء عن العظماء أو عن غيرهم.. سوف نكتشف أن حياة مولانا العقاد وهو من هؤلاء ووفق ما جاء فى هذا الكتاب كانت عبارة عن مجموعة من الأرقام ارتبط بها وارتبطت به، وذلك منذ فجر ميلاده وحتى فجر رحيله.

ولعبة الأرقام هذه قد بدأت بالفعل منذ الثامن والعشرين من شهر يونيه فى عام ١٨٨٩.. عندما سجل الحاج محمود العقاد

طفله عباس فى قسم صحة بندر أسوان بعد ميلاده بلحظات، ثم ظلت هذه اللعبة مستمرة حتى فرضت عليه الأيام بأن يعيش فى القاهرة فى المنزل رقم ١٣ بضاحية مصر الجديدة وأن يموت أيضا فى اليوم الثالث عشر من شهر مارس فى عام ١٩٦٤، وكانت المساحة الزمنية بين رقمى الميلاد والرحيل قد اتسعت حتى بلغت ما يقرب من ٧٥ عاما!.. وقد شهدت أحداثا عظيمة فى حياة هذا العبقرى.. تولد عنها كل ما تركه لنا من أعمال أدبية وفكرية متميزة لم تنته حتى برحيله.

وتقول لعبة الأرقام، إن العقاد بعدما ترك مدرسة أسوان الابتدائية.. والتحق بالوظائف الحكومية عاد واشتغل بالتدريس فى مدينة القاهرة، مع صديق عمره إبراهيم عبد القادر المازنى فى عام ١٩١٥.

وفى الفترة نفسها.. كانت موهبته الأدبية والفكرية قد بدأت تملك عليه نفسه فأخذ يكتب المقالات والشعر، ثم بدأت رحلته فى عالم الصحافة عندما كتب فى جريدة الظاهر ثم جريدة الأهالى بدءا من عام ١٩٠٤.

وفى عام ١٩٢٢ عمل صحفيا محترفا فى صحيفة البلاغ.. وقد سبق هذه الخطوة.. نجاحه فى انتخابات مجلس النواب فى عام ١٩٢٠.

ولم تترك الأرقام ولعبتها حياة العقاد، هادئة هانئة.. بل ظلت مربوطة فى عنقه حتى يوم رحيله.. حيث تطوع العديد من المؤرخين من أجل ترجمة هذه الأرقام فى حياة مولانا.. وذلك بخلاف ماذكرناه... فقالوا عن ذلك: لقد قرأ العقاد ما يقرب من ٦٠ ألف كتاب.. وكتب ما يقرب من ٥٩٠٠ مقال.. وأفضل ما قدمه من دراسات كانت دراسته عن ابن رومى التى نشرها فى عام ١٩٢١.. وكتب العقاد رواية واحدة وهى "سارة" ثم كتب أيضا قصصا قصيرة كثيرة. وقد ترك وراءه من بعد رحيله ٨٤ كتابا فى مختلف المجالات..

* * *

وشخصية عظيمة مثل العقاد.. بما اتصفت بالعديد من المتناقضات كانت كفيلة بالعيش فى صراع دائم اجتاح فكره وعقله ونفسه أيضا.. كما كانت كفيلة بجلب العديد من المتاعب الصحية والتى نجح كثيرا فى إخفائها.. حتى عمن حوله من التلاميذ والحواريين. وكان من أخطرها ولاشك إصابته وفى فترة مبكرة من حياته بمرض القولون.. أو المصران العصبى.. وهو مرض عادة ما يصيب معظم المشتغلين بالفكر وبالأدب..

وكان العقاد على علم بكل تفاصيل هذا المرض الذى عانى منه طويلا.. لكن الأطباء اكتشفوا أن العقاد كان مريضا أيضا بالعديد من الأمراض الأخرى وعلى رأسها كانت أمراض القلب التى كانت السبب الرئيسى وراء رحيله.. حيث مات إثر أزمة قلبية فى عام ١٩٦٤.

والمعاناة الصحية الطويلة التى لازمت العقاد لعشرات السنين من جراء إصابته المبكرة بداء المصران أو القولون العصبى، جعلته يتغاضى عن الاهتمام بأى أمراض أخرى حتى أمراض الشيخوخة التى بدأت تهاجمه فى سنوات عمره الأخيرة بحكم تقدم السن ووهن الصحة.!

ونستطيع أن نؤكد من خلال متابعة متأنية لحالات العقاد الصحية، أنه قد بدأ يدخل دائرة الأمراض العصبية بدءا من عام ١٩٣٠ عندما دخل السجن بتهمة العيب فى الذات الملكية.. وكان وقتها يعمل بجريدة المؤيد الجديد.. وقد أشارت بعض الصحف والمجلات الصادرة آنذاك إلى قسوة هذه التجربة فى حياة العقاد الصحية.. بالإضافة مما كتبه هو عن نفسه.. فقالت مجلة اللطائف المصورة فى ١٥ ديسمبر من عام ١٩٣٠ إن الكاتب الكبير عباس العقاد قد ساءت صحته أثناء اعتقاله رهن المحاكمة. على رغم أن العقاد كان يبلغ من العمر آنذاك ٤١ عاما فقط!

وبرغم هذه التجربة القاسية، وبرغم معاناة العقاد الصحية فى هذه الفترة المبكرة إلا إنه لم يكن يهدأ أبدا.. بل واصل كفاحه الفكرى والسياسى، الأمر الذى جعله يؤجل الاهتمام بما كان يعانيه من أمراض.. حتى زحفت عليه السنون وتشابكت مع فترة الشيخوخة.. وقد اجتهد العقاد كثيرا من أجل إخفاء إصابته بالأمراض.. نظرا لما كان يتصف به من كبرياء وعناد.. بدليل أنه حين كتب لنا عن أحاسيسه بفترة الأربعينيات.. لم يحدثنا إلا عن ضعف بصره الذى لازمه منذ صباه.. وبرغم اعترافه بذلك لم يسمح لنفسه بارتداء النظارة إلا حين وصل لسن الخامسة والأربعين ثم الخمسين. وقد عرضه هذا العناد الذى صاحبه فى عدم استخدامه للنظارة الطبية لإجراء عملية جراحية فى عينيه.. تحت ضغط أوامر الأطباء الذين أشاروا عليه بضرورة إجرائها حفاظا على بصره.

وكذلك حين كتب لنا عن أحاسيسه وهو فى سن الخمسين والستين والسبعين.. لم يذكر صراحة ما كان يعانى منه من أمراض.. وكل ما فى الأمر أنه تحدث عن الشيخوخة وآثارها النفسية عليه وعلى كل كتاباته.. وقد كتب معبرا عن ذلك حين احتفل تلاميذه وأصدقاؤه بعيد ميلاده الستين فقال:

"لقد زادت قدرتى على البحث والدراسة ونقصت قدرتى على مواصلة الكتابة والقراءة".

. وعندما وصل إلى سن السبعين قال فى نفس السياق: "وسأبقى معى فى السبعين كل ما يعين النفس على هجران الحياة إذا وجب أن تهجر، وهجرانها واجب يوم تستبقينى وأنا أسف للبقاء فيها".

ويؤكد الأديب الراحل رشدى صالح أن العقاد فى هذا العمر المتقدم.. وبرغم حاجته إلى الرعاية الصحية.. إلا إنه رفض الانتقال إلى المستشفى إيمانا منه بأنه يعرف من أسرار جسمه ومرضه أكثر مما يعرف الأطباء!.. ليس هذا فقط، بل كان كثيرا ما يناقش بحدة هؤلاء الأطباء فى نصائحهم إليه.. وقد ظل هذا العناد ملازما للعقاد حتى قبيل الساعات الأخيرة من رحيله.. إذ رفض أن يعرف أنه مصاب إلى جانب "المصران" -كما كان يسميه- بأمراض القلب والشريان التاجى.. بل وأيضا بسرطان القولون..!!

ولعله كانت هناك العديد من الدوافع التى وقفت حائلا أمام اعتراف العقاد بأمراضه حتى وهو فى سن الشيخوخة.. وربما يكون من بين تلك الدوافع ألا يظهر أمام تلاميذه ضعيفا.. وربما

كانت هناك دوافع أخرى، كان يحسب لها ألف حساب.. دون أن يفصح عنها، أو يعرفها أقرب تلاميذه ومحبيه!

ولولا إحساس العقاد بالمشاكل النفسية والصحية لفترة ما بعد سن السبعين وما يصاحبها من أمراض، خاصة أمراض الشيخوخة لما أسف على البقاء لحظة واحدة بعد اجتيازها.. لكن الله قد أمد في عمره خمس سنوات أخرى إلى ما بعد ما تمنى.

وفي هذه السنوات الخمس.. عانى العقاد معاناة شديدة على مستوى الأمراض التي لازمته.. وعلى مستوى أمراض الشيخوخة أيضا.

ولعل استعراضنا لحالته الصحية قبيل رحيله بشهر واحد.. من خلال ما كانت تنشره الصحف آنذاك يبين لنا ذلك وأكثر منه.. ففي شهر فبراير من عام ١٩٦٤.. نشرت الأهرام عن حالة العقاد الصحية: "فجأة امتنع عملاق الأدب العربي عباس محمود العقاد– ٧٥ عاما– عن الاطلاع وقراءة الكتب منذ ٣ أيام عقب أزمة صحية شديدة ألمت به فأرقدته في فراش بيته بمصر الجديدة، وقد تحسنت صحته نسبيا وأن د. جمال بحيري سوف يعاوده اليوم!".

وقالت الأهرام عن صحة العقاد نقلا عن التقارير الطبية: "في عتمة ما بعد منتصف ليلة ثاني أيام العيد وأثناء نوم الأديب

الكبير، صحا على آلام مبرحة اجتاحت جسده إثر تقلص شديد أصيب به فجأة مصرانه الغليظ..

ومع ضوء الفجر أسعفه الأطباء د. محمد ياسين عليان، ود. يوسف عز الدين. ود. موسى إبراهيم جمال.. ولأول مرة يرضى العقاد أن يعطى له الطبيب قرصا مخدرا لتخفيف آلامه، إذ كان يرفضها طوال حياته خاصة عندما انتابته هذه الأزمة مرتين من قبل، وكان السبب أيضا هو مصرانه الغليظ.

وكانت المرة الأولى عندما علم بمصرع النقراشى، وداهمته الثانية عند وفاة شقيقته.. وجاءته الثالثة إثر إرهاق، عندما بدأ العقاد يكتب مذكراته ومعها تاريخ مصر من بداية هذا القرن فكريا وسياسيا واجتماعيا وأدبيا.

وفى محاولة من كمال الملاخ كاتب الموضوع لتأهيل مرض المصران عند العقاد قال: وهذا الضعف فى مصرانه الغليظ ليس جديدا عليه.. فالعقاد يشعر به منذ ٣٠ عاما ولهذا فقد أخذ الحرص والاحتياط فالتزم رجيما خاصا فى حياته وفى طعامه الذى يجب أن يكون مسلوقا وبعيدا عن أى أطعمة ليفية!. واختتمت الصحيفة قولها عن ذات الموضوع: "ولكن خفت الأزمة ومازال العقاد ملازما لفراش حجرة نومه!".

ويبدو أن تلك الحالة المرضية العنيفة التى هزت كيان العقاد آنذاك كانت هى التى صورها الأديب أنيس منصور فيما كتب فيما بعد حين قال: "... وخرجت من عنده (أى من عند العقاد وكان يزوره فى بيته) ..لأجد د. ياسين عليان يصر على ضرورة أن يأخذ الأستاذ حقنة شرجية.. وصرخ قائلا: إذا لم يفعل ذلك فسوف يصاب بتسمم ويموت.. لابد وأن يقال له ذلك.. إذا لم تسمعوا كلامى فلماذا أتيتم بى إلى هنا؟!.. أنا أدخل وأقول له.. هذا أمر عجيب.. ودخل الطبيب قائلا: يا أستاذ لابد من حقنة شرجية.. لابد!

ووافق الأستاذ، ورفض أن يكون معه فى الغرفة أحد، ورفض أن يدخل ابن أخيه عامر العقاد أو أى أحد.. وأغلق الباب على الأستاذ، ولم نسمع بوضوح ما يقوله من لعنات وصيحات.

وبعد لحظات من الصمت الطويل، فتح الطبيب الباب لنجد الأستاذ قد تمدد على الفراش، وأسرع الطبيب يمسك يده.. ووضعها إلى جواره، وطلب إلى الخادم تنظيف الغرفة وترتيبها، ووضع اللحاف على جسم الأستاذ حتى يهدأ بعض الوقت".

* * *

وبعد رحيل العقاد.. أفصح لنا أنيس منصور أكثر عن حالة العقاد الصحية.. فكتب يقول عن تلك الحالة فى جريدة الأخبار،

بعد رحيل أستاذه: "فى الأسابيع الأخيرة شكا من مرض.. من تعب فى بطنه وشخصه العقاد بأنه المصران الغليظ، وهو مرض يشكو منه منذ ثلاثين عاما وبين الحين والآخر كان يصاب العقاد بتشنج فى مصرانه الغليظ وقد حدث له ذلك عدة مرات.

وجاء الأطباء واحدا بعد الآخر وعرض عليهم العقاد حالته.. وراح يصف لهم متاعبه من المصران وكيف كان يعالجه منذ ثلاثين عاما، وكيف أنه قرأ أقل شيء عن "المصارين" وعن المصران الغليظ بصفة خاصة.. وقد حرصوا الواحد وراء الآخر على الكشف عليه؛ وكان العقاد يقبل، ومعظم الأحيان لا يقبل.

فهو يعرف مقدما ما سوف يقوله الطبيب.

وطلب من العقاد تحليل للدم، وجاء مؤكدا وجود نقص فى الكريات الحمراء.. ثم استعاد العقاد هذه الكريات الضائعة.. ولكن الأطباء خشوا عليه من مرض آخر لايعرفه العقاد ولم يستطع أن يشخصه، فهم يخشون شيئا على قلبه؛ ولذلك طلبوا منه ألا يرهق نفسه وألا يبرح الفراش.

والعقاد مريض نموذجى.. وخشى بعض الأطباء أن يكون العقاد مصابا بالسرطان، وتهامسوا بذلك.. وبينما كان العقاد يعالج نفسه من المصران الغليظ ويؤكد للأطباء ويوجههم إلى

مرضه، كان يعانى فى نفس الوقت من شيء فى القلب.. من جلطة دموية وهى التى أودت بحياة الفقيد العظيم.

وكان فى نية العقاد أن يدخل أحد المستشفيات لإجراء العملية الجراحية التى يراها الأطباء، وهو يرى أن جسمه لن يتأثر بهذه العملية فهو لا يشكو من مرض السكر، وهو لا يشكو من القلب. وهو ليس مصابا بأى مرض يجعل إجراء العملية شيئا صعبا. وحتى إذا ذهب إلى المستشفى فسيضحى بالنظام.. وربما ذلك كان السبب الأساسى الذى جعله يهرب من المستشفى، ،

* * *

ويكمل أنيس منصور أخلص تلاميذ مولانا العقاد شهادته عن الأيام والساعات واللحظات الأخيرة فى حياة أستاذه.. فيقول: "ضبطت نفسى متلبسا بإحساس غريب.. فقد لاحظت أننى لا أريد أن أرى الأستاذ، ولا رغبة عندى فى الذهاب إليه.. واندهشت لهذا الشعور العجيب.. ولكن المعنى الذى اهتديت إليه هو أننى أحسست أن الأستاذ قد انتهى.. إن لم يكن قد مات فهو قريب من الموت، وليست له حاجة بأحد من الناس.. ثم إن الناس سواء تكاثروا حوله أو قل عددهم فإنهم لا يستطيعون أن يقدموا له شيئا. بل إنه الآن لم يعد فى حاجة إلى طعام أو شراب

أو حتى هواء.. إنه أصبح غائبا، فهو لا يدرى من الذى جاء ومن الذى خرج.. ولم تعد تجدى كل الكلمات الحلوة التى تقال له.. فلماذا تذهب إلى الأستاذ الذى لم يعد هناك؟!،،

وفى فقرة أخرى من هذه الشهادة قال أنيس منصور: لقد سمعت أستاذنا العقاد يقول فى أخريات أيامه.. إننى الآن أتراجع عن الدنيا.. أتراجع حتى تبدو لى صغيرة ضئيلة وحقيرة.. إما أننى الذى أتراجع أو هى التى تنسحب، فالمسألة تكبر والأشياء تصغر، وسوف يظل إحساسى بهذه الدنيا هكذا مادمت أشعر ومادمت أفكر. وسألنى الأستاذ عامر العقاد قائلا: ماذا يقول لك؟! . قلت أنت تعرف.. فعقله لم يتوقف عن التفكير، وهو لا يستطيع أن يوقف عقله.. قال عامر العقاد: هل تعرف ماذا قال لى صباح اليوم؟. قال: يا عامر اقرأ صفحة الوفيات فى الأهرام.. واعرف لى كم عدد الذكور والإناث فقلت: ماتت امرأة واحدة، فضحك قائلا: واحدة!.. إن هذا كثير.. منذ أسبوعين قرأت الوفيات فلم أجد إلا رجالا.. ثم طلب منى أن أعرف نوعيات الذين ماتوا.. فلم أفهم، فعاد يقول لى: كم عدد المهندسين وكم عدد الأطباء؟ وكم عدد الفلاحين؟ وكم عدد التجار؟ وظللت ساعة أقلب فى صفحة الوفيات.

ويقترب بنا أنيس منصور أكثر وأكثر. حيث اللحظات الأخيرة من حياة العقاد فيقول واصفا ذلك: ".. وفى الساعة الثانية صباحا.. نهض الأستاذ من فراشه وذهب حافيا إلى دورة المياه.. وهى أول مرة يجد نفسه قادرا على النهوض دون مساعدة!.. وأن يقف دون أن يتساند على الجدران، وأن يذهب إلى المخدة.. ثم جلس الأستاذ على المقعد المجاور إلى السرير. وحاول أن ينادى أحدا، ولكنه لم يستطع أو لم يرد ذلك.. ومدد ساقاه تحت السرير ووضع يده على جانبه الأيسر.. ومال بكل جسمه إلى اليسار.. وارتطمت يده ببعض الزجاجات فسقطت، فسمع أهله وأبناء أخيه ذلك، فسارعوا إلى غرفة الأستاذ واقتربوا منه ولم يجرؤ أحد أن يلمسه، وتقدم الأستاذ عامر العقاد، ولأول مرة فى حياته يلمس الأستاذ ويمسك يده.

فوجد القلب يدق ببطء شديد. وأسرع إلى التليفون، فطلب منه د.عليان أن يعطيه كورامين.. وكانت المرة الأولى فى حياة أحد من أقارب الأستاذ أن يقترب منه أكثر أو أن يلمس ذراعه أو عنقه أو رأسه ويقدم له دواء وهو يرتجف، فهو يخشى إذا صحا الأستاذ أن يغضب!!.. وجاء د.عليان بعد دقائق، وتقدم إلى الأستاذ، ومد يده يجس النبض، وخرج يبكى: البقاء لله..،

مات الأستاذ! ولا أحد يعرف بالدقة ما الذى حدث بعد ذلك..

ويضيف الدكتور ياسين عليان طبيب العقاد الخاص عن الحالة الصحية للعملاق العظيم قائلا:

لقد سافر العقاد فى الشتاء الماضى ليمضى هناك شهرا كاملا فى أسوان كعادته كل عام، ولكنه لم يقض غير أسبوع واحد فقط! عاد بعده فى حالة نفسية شديدة السوء، وسألته عن حاله فقال:

ـ لقد عدت حزينا!

وعندما استفسرت منه عن السبب أكثر.. فقال:

ـ لقد سافرت لأستمتع بالشمس هناك.. فإذا بى أفاجأ بأنهم يبنون منزلا جديدا يقابل منزلى فحجب الشمس عنى!

وعلى أية حال.. لقد كان العقاد يعانى ويشكو فى أيامه الأخيرة من مرض القلب إلى جانب المصران الغليظ، وعندما حضر الأستاذ الدكتور محمد عطية وأجرى له رسما للقلب وطلب نقله إلى المستشفى وحاولنا إقناع العقاد بالذهاب إلى المستشفى لكنه رفض. واستعنا بأصدقائه ومن بينهم الأديب طاهر الجبلاوى ولكنه رفض قائلا:

ـ إذا كنت سأموت، فلن أموت إلا هنا فى منزلى وعلى فراشي وبين كتبى.

وبعد شهر واحد تقريبا من الأزمة الصحية الطاحنة التى مرت على حياة العقاد.. والتى عاصرها كل من طبيبه الخاص وتلميذه أنيس منصور.. وقعت الواقعة.. ورحل العملاق بالفعل عن عالمنا.. وكان لهذا الرحيل وقع الصاعقة على كل من كانوا حوله.. سواء من المتابعين لحالته الصحية أو من غير المتابعين لها.. وكانت لحظات رحيل هذا العملاق.. من أصعب لحظات الحياة على الكثير ممن كانوا حوله آنذاك.

وكان من أوائل أقاربه من الذين خفوا لنجدته ساعة سماعهم بنبأ وقوعه من فوق سريره لحظة الوداع الأخيرة.. عبد العزيز الشريف ابن خالة مولانا العقاد.. وقد صور لنا تلك اللحظات الصعبة حين قال:

"سمعنا العقاد يقول وكنا حوله.. اتركونى أنام.. فأنا أشعر الآن بالتحسن فى صحتى.. لقد قالها وهو يتمدد فوق سريره والضوء الخافت ينعكس على وجهه، ثم أغمض جفنيه لحظات.. وقبل أن ننصرف من حوله انطلقت حشرجة من فمه، ثم هدأ من بعدها مرة أخرى فانصرفنا وخرجنا من غرفة نومه.. الواحد تلو الآخر، ومضت دقائق قليلة، سمعنا بعدها صوت العقاد.. ولم نستطع أن نتبين جيدا ماذا يقول؟.. عندئذ أسرعت إلى غرفته

فوجدته يتقلب فوق سريره بعصبية وقلق، فأسرعت أكثر خطاى نحوه حتىأمنعه من الوقوع على الأرض.. ولكننى وصلت إليه متأخرا لحظات كان خلالها قد مال برأسه على المقعد الكبير الملاصق لسريره فأصيب فى جبهته، وأسرعت أرفع جسده بكل قوتى وتحسست يده، وكان نبضها ضعيفا جدا.

عندئذ أسرع عامر العقاد ابن شقيق العقاد والذى يعيش فى منزله بصفة دائمة واتصل بطبيبه الخاص محمد ياسين عليان، وقال الطبيب إنه سيسارع بالحضور فى خلال دقائق، وطلب إعداد حقنة كورامين حتى يصل.

ومضت دقائق قصيرة والعقاد يتمدد على السرير وملاءة بيضاء تغطى جسده، بينما كان عامر يقف أمام باب الشقة المفتوح انتظارا للطبيب الذى حضر وهو يلهث وخلع جاكته وهو فى طريقه لغرفة نوم العقاد وأزاح الملاءة البيضاء، ونظر إلى عينيه وأمسك يده، والتفت إلى ابن شقيق العقاد قائلا: البقية فى حياتكم!

وخرج من الغرفة يتهاوى هو الآخر.. ووقفت وسط غرفة مكتب العقاد، كان على مكتبه آخر كتابين طالعهما.. الكتاب الأول بعنوان "فى أعقاب الثورة المصرية" تأليف عبد الرحمن

الرافعي.. وكان قد توقف عند الصفحة [٥٥] والتى تحمل عنوانين: الأزمة الدستورية وإقالة الوزارة.. أما الكتاب الثانى، فهو "شعر من المهجر" تأليف محمد قرة على ولم يكن يقرأ صفحاته بطريقة منتظمة؛ وبين صفحات الكتابين كتب على ورقتين منفصلتين -بالحبر الأسود الداكن- ملاحظاته.. وتركت غرفة مكتبه.. فوقفت أمام باب قديم مغلق ومددت يدى المرتعشة لأفتح الباب. وأرى العملاق وهو ممدد على المنضدة الطويلة.. وكانوا فى هذه اللحظات يحنطون جسده قبل نقله إلى أسوان، ولأول مرة ألمح الهدوء يكسو وجهه برغم ذقنه الطويلة.. ساقاه ممددتان وقد علتهما صفرة شديدة، وراح طبيب الصحة يحقنه فى ذراعه.. ونظرت إلى وجه العقاد مرة أخرى، وجدته يشير برأسه إلى الأمام وبالذات إلى حائط الصالة التى كان يرقد فيها والتى لم يكن معلق عليها غير صورتين.. الأولى للإمام الشيخ محمد عبده.. أما الثانية فكانت للسيد جمال الدين الأفغانى، وكأنهما يبادلانه نفس النظرات. !

وبعد ساعة كاملة انتهى طبيب الصحة من إعداد جثمانه.. وعلى الفور أخرج شقيق العقاد أحمد محمود العقاد -وكانت الدموع فى عينيه- الصندوق الذى تم إعداده وقد تم تبطينه

بالصاج ليحمل جثمان العقاد من منزله رقم ١٣ شارع السلكان حسين بمصر الجديدة حتى نهاية الرحلة إلى أسوان..

وأما عم أحمد حمزة خادم وطباخ العقاد، فقد قال فى شهادته عن اللحظات الأخيرة فى حياة العملاق:

"لقد أعددت له بيدى آخر وجبة تناولها، وكانت من طبق به كفتة التى صنعتها له بالماء وطبق جيلى تفاح.. وفى ليلة الأمس ليلة الوفاء وبعد أن تناول عشاءه، قلت له: إننى أحس أنك متعب وأنا أريد الليلة أن أمضيها فى غرفتك وبجوار سريرك.. فرفض العقاد قائلا لى: أنت غلطان.. فأنا أشعر بتحسن فى صحتى، وغدا ستجدنى سليما جدا.. ثم طلب منى أن أسارع بترك الغرفة لأنام فى غرفتى فوق السطح، وقبل أن أغادر غرفته نبه علىّ بضرورة المجئ إليه مبكرا، كما تعودت منذ خمسة وعشرين عاما لأقدم له فنجان الشاى.. وفى الصباح الباكر نزلت إليه فى غرفته كعادتى.. ولكنه ولأول مرة وآخر مرة أخلف وعده معى!

* * *

ويوم رحيل مولانا عباس محمود العقاد.. قطعت إذاعة القاهرة برنامجها فى الساعة الثالثة من فجر يوم وفاته وأذاعت النبأ العاجل.. وكانت الإذاعة فى هذا الوقت تذيع نتائج الانتخابات!.

كما قام الدكتور عبد القادر حاتم وزير الإعلام آنذاك بزيارة عاجلة لبيت الرئيس عبد الناصر ليبلغه بنبأ الوفاة.. وكان من رأى عبد الناصر ضرورة نقل العقاد إلى المستشفى لعلاجه.. وفى خارج مصر دقت الكنيسة الفرنسية أجراسها فى الخامسة من عصر اليوم اللاحق للوفاة.. حدادا على عملاق الأدب العربى.. كما كان موكب تشييع جنازته بالقاهرة من قبل نقل جثمانه إلى أسوان مظاهرة مدوية تقدمها ١٥ باقة زهور ومجموعة كبيرة من تلاميذه.

* * *

(٣) د.طه حسين
انتظر العبور العظيم لكى يرحل مطمئنا

إذا كان عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين.. قد كتب لنا معظم ملامح حياته الخاصة، ومشوار هذه الحياة وخروجه من بلدته "الكيلو" بصعيد مصر.. فى كتابه العظيم "الأيام"، وإذا كان الدكتور محمد حسن الزيات زوج ابنة العميد السيدة أمينة قد كتب لنا هو الآخر عن الدكتور طه حسين.. فيما أسماه "ما بعد الأيام"، حيث استكمل لنا مشوار حياة العميد حتى بعد رحيله، فإننا سوف نكتب عن الدكتور طه حسين فى هذه الأوراق.. عما بعد هذه الأيام من قبل رحيله.. وذلك وفق منهجنا العام الذى اخترناه للحديث عن عظماء الفكر والأدب من العمالقة الذين رحلوا عن عالمنا.. وكانت فى حياتهم خلال الأيام الأخيرة التى سبقت الرحيل.. حكايات وحكايات تستحق أن تروى!

وكما مر علينا وعليكم من قبل فسوف تتسم كتاباتنا عن عميد الأدب العربى.. بالطابع الإنسانى.. الذى قد لا يلتفت إليه

أحد غيرنا.. من واقع إحساسنا بعظمة هذا الرجل الذى اتسمت حياته كلها بالتحدى.. وكان من أعظمها.. قهره لظلام العين برؤية القلب!.

وأكثر من ذلك، كان الدكتور طه حسين مثالا لقدرات الإنسان الذى خلقه الله.. وصوره.. ثم تركه للعيش فوق هذه الأرض بما يملك من إمكانيات وقدرات هُيأت لكل منا حسب ما أعطاه الله من مقومات نفسية وجسدية وعقلية.

ولو استعرضنا تاريخ الأدب العربى.. لمعرفة موقع العميد فوق خريطته من واقع ما كان فيما يخص العجز، وفقدان البصر.. لوجدنا أنه يحتل المرتبة الثانية بعد الشاعر والمفكر العربى "أبى العلاء المعرى".. الذى اشتهر فى تاريخ الأدب العربى بلقب "رهين المحبسين"!

ومن بعد الدكتور طه حسين.. فتحت الأبواب على مصرعيها.. لاحتواء أصحاب العاهات.. الذين أثبتوا أنهم لا يقلون مقدرة وطموحا عن غيرهم من الأسوياء من أصحاب الأبصار السليمة.

وكأنما جاء العميد فى منتصف الطريق ليضىء لهؤلاء طريقهم بالعلم والفكر والمعرفة.. ناسفا بذلك السد الضخم الذى يقام من حول هؤلاء المعاقين. والذين كانوا يتحولون رغما عنهم إلى

مرضى.. يعيشون بعاهاتهم.. والعديد منهم كان يركن إلى هذا العيش الذى يؤدى فى نهايته إلى احتراف التسول مع اختلاف أساليبه.

من هنا تكمن عظمة طه حسين الذى رحل عن عالمنا فى اليوم الثامن والعشرين من عام ١٩٧٣.. عن عمر يناهز الرابعة والثمانين.. وقد استطاع أن يحجز له مكانا واسعا بين عظماء هذه الأوراق.

ولسنا فى حاجة لكى نعدد الفوائد التى حققها أصحاب عاهات الأبصار من وراء ما حققه الدكتور طه حسين بنفسه لنفسه وللآخرين.. ويكفيهم فى ذلك فخرا.. أن أصبح لهم عميدا ورائدا ومعلما.. علم العلم بلسانه وكلماته وأيضا بأفعاله.

* * *

ولسوف تتجلى لنا أكثر هالات عظمة هذا العميد.. كلما اقتربنا من الحديث عن حياته.. وذلك من قبل أن نقترب نفس المسافات من أيامه الأخيرة. إيمانا منا بأن عظمة الإنسان قد تولد معه.. وربما لصعوبة ظروف الحياة قد يتأخر ظهورها إلى حين. ولكن مع مرور الأيام يبدأ الإنسان العظيم.. فى حصد مآثر عظمته.. التى تفيض بالطبع على الآخرين وعلى كل من حوله

قبل أن تفيض عليه بذاته.. وأعماله في مختلف ميادين الحياة هي التى تثبت وتظهر وتوضح للعين المجردة تلك الآفاق.

وبشكل عام فقد مر د.طه حسين فى حياته بالعديد من الصعوبات الصحية والاجتماعية.. ولولا إصراره وقوة إحساسه بإمكانياته وقدراته لاستسلم بالفعل لهذه الظروف. ولخسرنا عبقريا ومفكرا عظيما مثله.. ومن أخطر ما واجه طه حسين في حياته إصابته بالعمى وهو فى سن السادسة من عمره.. وقد خلقه الله مبصرا مثل الأطفال من أقرانه من أهل قريته. وجاء ميلاد طه حسين في إحدى قرى محافظة المنيا بصعيد مصر، والقرية التي ولد بها اسمها "الكيلو"، وهى تبعد مسافة كيلو واحد من بلدة مغاغة.

وكان لطه حسين ثلاثة عشر أخوة.. وترتيبه بينهم كان السابع.. وبرغم هذا العدد الضخم فقد لاقى الطفل طه حسين رعاية خاصة ميزته ومكنته عن هؤلاء الأطفال.. وكان الأطفال فى هذه القرى على حد قوله: حين يشكون يهملون، فإذا التفتت إلى أحدهم أم، فهى تسقط من حسابها الطبيب مكتفية بعلم جاراتها وأشباههن فى الجهل.. والدكتور طه حسين يذكر لنا ذلك لأنه وهو صبى فقد بصره على يد حلاق القرية!

وكانت أمنية والده الشيخ حسين الموظف بشركة السكر أن يرى ابنه الشيخ طه قاضيا. أو من علماء الأزهر.. وقد عمل أبوه فعلا من أجل تحقيق تلك الأمنية فأرسله إلى القاهرة مخلفا وراءه الريف والثوب الفضفاض الذى كان يلبسه قبل أن يهبط القاهرة. وكانت حياة العميد منذ مقدمه إلى القاهرة شريطا حافلا بالكلمات والحركات والصور.. وهى تلك التى استعاض عنها برؤية النظر.. حيث نجح فى استخدام قلبه وعقله بدلا منه.!

ومع مرور الأيام اصطدم نور عقل العميد بما كان حادثا آنذاك بالأزهر.. إلى جانب المضايقات التى نالها من جراء إصابته بالعمى. فقرر الفرار بهذا العقل والتحرر مما لاقاه.. عندئذ اتجه إلى الجامعة المصرية ليكمل من خلالها مشوار حياته الفكرية.. هذه الخطوة فى حد ذاتها قد أفاضت عليه وعلينا.. إذ كانت البداية الحقيقية لانطلاقه فى رحاب العلم والفكر والسياسة أيضا.

وقد خدمه الحظ كثيرا ففى عام ١٩٠٨ أُنشئت الجامعة الأهلية وقد رأى فيها الفتى حلمه.. وعلى إثر تلك الخطوة تحولت معظم مجريات حياته أيضا، فانتقل للإقامة فى منزل جديد بدرب الجماميز.. كما اتخذ لنفسه خادما جديدا.. كان دليله نحو

الأزهر ونحو الجامعة، وقد استطاع فى الفترة نفسها أن يجمع بين الدراسة فى الجامعتين الأزهرية والأهلية!

وأخذ حلمه فى العلم يقترب برغم عجزه.. فحصل فى عام ١٩١٤ على رسالة الدكتوراه "فى ذكرى أبى العلاء".. كما اختارته الجامعة لإيفاده فى بعثة إلى فرنسا وهكذا كما تقول الدكتورة نعمات أحمد فؤاد: غدا الحلم حقيقة تبهر صاحبها والناس.

ومن أطرف ما يقال فى هذا السياق.. ووفق ما أثبتته وقائع الجامعة القديمة.. أن الطالب طه حسين قد تقدم بالتماس إلى الجامعة لكى تقرضه ١٥ جنيها ليشترى بجزء منها ملابس أفرنجية بدلا من زيه الأزهرى.. ويسدد بالباقى أجرة الغرفة التى كان يسكنها، استعدادا للسفر فى البعثة إلى باريس فصرفت له.

كما صرفت له أيضا المكافأة التى وقفها الدكتور محمد علوى باشا ابتداء من عام ١٩١٣ على روح ابنه المرحوم حسين علوى، وقدرها عشرة جنيهات لمن يستحق من طلاب الجامعة المصرية عن سنتى (١٩١٣ــ ١٩١٤) نظرا لتفوقه فى الدراسة ونيله إجازة العالمية فى قسم الآداب بدرجات عالية جدا.

وبدءا من عام ١٩٢٦.. دخل طه حسين.. دائرة الضوء من أوسع الأبواب حين ألف كتابا بعنوان "عن الشعر الجاهلى"، وعلى إثر ما صاحبه من ضجة إعلامية وسياسية.. اضطر لاستبدال عنوانه تحت اسم "فى الأدب الجاهلى".

وفى العام نفسه كان قد تم تعيينه أستاذا للآداب بالجامعة.. ثم تم إسناد كرسى الأدب له، وفى عام ١٩٢٨ تم انتخابه عميدا لكلية الآداب، وقد أثار هذا التعيين أزمة سياسية.. أدت إلى تقديم استقالته..إلا إنه سرعان ما عاد عميدا لنفس الكلية. مرة أخرى فى عام ١٩٣٠، برغم أن رئيس الحكومة آنذاك، كان إسماعيل صدقى الذى طلب منه الاستقالة مرة أخرى لتولى رئاسة تحرير جريدة "الشعب".. ورفض طه حسين، وآثر العمادة على الصحافة.

وتؤكد الدكتورة نعمات أحمد فؤاد مرة أخرى.. أنه ومنذ ذلك التاريخ أصبح الدكتور طه حسين طرفا أساسيا فى العديد من الأزمات السياسية.. التى كان سببها فى تصوره الصحيح الحق والعلم.

وخرج الدكتور طه حسين من هذه الأزمات خاسرا حيث أحيل إلى التقاعد من الجامعة فى عام ١٩٣٢ بقرار من إسماعيل صدقى. وبناء على توصية من مجلس النواب!.. وكانت فرصة ينتظرها

حيث اقترب العميد أكثر من عالم العمادة.. لكنه أعيد للجامعة فى عام ١٩٣٤ وظل بها عميدا حتى عام ١٩٤٢. وفى عام ١٩٥٠ عين لأول مرة وزيرا للمعارف وكان من قبل تلك الخطوة.. يعمل مستشارا فنيا فى نفس الوزارة حتى أحيل للتقاعد فى العام الذى اختير فيه وزيرا.

وفور توليه هذا المنصب السياسى قرر اعتماد مجانية التعليم انطلاقا من صيحته المدوية.. إن التعليم لابد وأن يكون كالماء والهواء.. وكان الدكتور طه حسين فى هذه الفترة قد بلغ من عمره ٦١ عاما.

ولا شك أنه فى مثل هذه السن المتقدمة.. وبعد هذا الكفاح العظيم.. فى مجال الفكر والسياسة.. كان لابد من مشاكل يواجهها العميد فى حياته الصحية وفى مسيرة شيخوخته بشكل خاص، ولا ننسى أن نقول فى هذا السياق إن طه حسين قد ذاق مرارة الأمراض منذ نعومة أظفاره وهى التى أسفرت كما نعلم عن انتقاله من عالم الإبصار إلى عالم الإظلام!

أضف إلى ذلك أنه كلما كانت الأيام تزحف فى اتجاه مسيرة حياته كلما كان يقترب بقوة من مشاكل الشيخوخة حيث الأمراض التى قال عنها يوما لتلميذه كمال الملاخ: "أما المرض،

فقد لقيت منه شرا كثيرا، ولكني أتعزى عن هذا الشر، بما يؤثر من أن الله يكفر عن المرء بعض سيئاته ويغفر له بعض ذنوبه بمقدار ما يؤذيه المرض". ولما بلغ التاسعة والسبعين من العمر قال لأصدقائه: "إنى لا أود شيئا من الدنيا لأن الحياة إنما هى -كما قال الله عز وجل- "لعب ولهو وزينة".

ومن هنا نستطيع أن نؤكد أن أيام عميد الأدب العربى الأخيرة قد بدأت مع مطلع عام ١٩٦١.. وكان وقتها قد بلغ من العمر حوالى الثانية والسبعين عندما أجريت له جراحة عاجلة.. وقد ذكر لنا ذلك الدكتور محمد حسن الزيات فى قوله حين تحدث عن ذكرياته مع العميد فيما كتبه عما بعد الأيام "فى حديقة رامتان وفى فبراير عام ١٩٦١.. كان الدكتور محمد كامل حسين يخرج من المنزل إلى الحديقة مع طه حسين بعد أن قام بفحصه فحصا دقيقا.. وطه حسين يسير متعبا وكامل حسين صامت قليلا ولكنه متمالك لنفسه، عندئذ قال الدكتور كامل حسين وهو يتحدث بجد عن هذه المرة لابد من نقل الدكتور إلى المستشفى حالا، العمود الفقرى يحتاج إلى عملية ضرورية قطعا وإلا واجهنا خطر الشلل، ومن حسن الحظ عندنا الآن أستاذ من أساتذة هذه العملية فى العالم، جراح أعصاب سويدى اسمه "أوليفا كرونا" يجرى

عملياته فى مستشفى الطيران، المستشفى الفرنسى سابقا. وسيكون معنا كل من يلزم من الأطباء.. مسئوليتكم كبيرة والسرعة لازمة.

وتدخلت ابنة العميد أمينة قائلة: متى؟.. قال: الطبيب حالا.. وفى مستشفى الطيران استغرقت العملية ساعتين ولم يشارك الدكتور "أوليفا كرونا" سوى الدكتور البنهاوى والطاقم الذى حضر مع الدكتور السويدى.

وفى القاعة الخارجية للمستشفى كان هناك عدد كبير من الأطباء والأصدقاء والأساتذة والطلاب ينتظرون فى سكون، مظاهر متعددة للقلق على المريض لمحبته والتعلق به.

وفى هذه اللحظات يخرج الدكتور البنهاوى مساعد "أوليفا كرونا" من العملية ليطمئن الموجودين، حيث أبلغنا أن الدكتور العميد نقل لغرفة الإنعاش.

ويتضح من سياق بقية ما رواه الدكتور الزيات أن أسرة العميد خاصة زوجته السيدة سوزان.. كانت تخشى على زوجها من الإصابة بالشلل.. حيث لا يستطيع بعدها السير!

* * *

ومنذ ذلك التاريخ لم يتوقف زحف المرض فى اتجاه صحة الدكتور طه حسين، إذ ظلت صحته فى تدهور مستمر.. وقد آلت

الصحف آنذاك على نفسها متابعة هذه الحالة. فكتبت جريدة الأهرام فى عام ١٩٦٣ تقول: إن العميد أغمى عليه مرتين فى يوم واحد.. حيث أصيب بدوار أعقبه حالة إغماء أثناء وجوده فى مجمع اللغة العربية. وانتقل إلى إسعافه فى هذه اللحظات الدكتور أحمد عمار عميد كلية الطب السابق ود.محمد سليمان مدير الجامعة الأزهرية.. والغريب كما قالت الصحيفة فى ذات الموضوع أن الدكتور طه حسين الذى كان يبلغ من العمر ٧٤ عاما أفاق من الدوار بعض الوقت حتى عاودته ظاهرة الإغماء مرة أخرى. وظل العميد بمجمع اللغة العربية حتى عاد إلى منزله حيث تحسنت صحته.

وبعد شهر من هذه الواقعة كتبت جريدة الأخبار تقول أيضا إن أزمات المرض بدأت تعاود الدكتور طه حسين باستمرار وأنه اضطر لذلك أن يعقد عدة اجتماعات أدبية فى فيلته "رامتان" وهو نائم فى سريره!

وأضافت الصحيفة: إن سكرتير الدكتور طه حسين أبلغ كل الزائرين أنه ممنوع من مقابلة أى زائر لأنه لم يغادر الفراش منذ منتصف سبتمبر الماضى ومنذ أن خرج من المستشفى بعد إجراء العملية الجراحية فى العمود الفقرى وأنه يقضى يومه مستلقيا على السرير فى حجرته بالطابق الأول.

وفى بعض الأيام التى كان يشعر فيها بالانتعاش ينزل إلى حديقة فيلته ليستجم مدة ساعة أو نصف ساعة. وفى هذه اللحظات يلازمه فريد شحاتة سكرتيره وسائقه الخاص حسين مصطفى شبانة الذى يرتبط بالدكتور العميد منذ عام ١٩٤٤.

وفى الفترة ذاتها.. عانى عميد الأدب العربى بالإضافة إلى أمراض العمود الفقرى وأمراض الشيخوخة.. أيضا أمراض فراق الأحبة من زملاء الأدب والنقد.. حيث زاده رحيل صديقه العقاد فى عام ١٩٦٤ ألما فوق آلامه الكثيرة.

ويذكر لنا الدكتور الزيات بعضا من هذه الآلام التى اعتصرت قلب العميد على فراق أحبابه فقال: "كان الدكتور العميد يتحدث فى التليفون إلى منزل العقاد.. فأبلغوه بخبر وفاته.. عندئذ نادى على سكرتيره الخاص ليملى عليه مقالا عن العقاد لينشر فى جريدة الجمهورية.

وبعد أن انتهى من الإملاء طلب من السكرتير أن يتركه وحده ولا يدخل عليه أحد.. إلا أن زوجته السيدة سوزان دخلت عليه بعد قليل، وتساءلت عن السبب فيما قاله سكرتيره.. قال العميد: "نموت قليلا عندما يغادرنا فى هذه الدنيا الأهل والأصدقاء، لقد كنت بالأمس أذكر الأعضاء العشرة الذين دخلت معهم المجمع

عام ١٩٤٠. لقد ودعنا الآن لطفى وهيكل وعبد العزيز فهمى ومصطفى عبد الرازق. كما ودعنا على إبراهيم والمراغى وعبد القادر حمزة وأحمد أمين. والآن.. العقاد. ولم يبق على قيد الحياة من الزملاء العشرة سواى"!

وفى فقرة أخرى مما ذكره الدكتور الزيات. قال: يبدو إن الألم الشديد الذى أصاب الدكتور العميد حين عرف أنهم استغنوا عنه كصحفى وكاتب وكرئيس لتحرير جريدة الجمهورية فى الفترة نفسها قد ازداد.. والدكتور العميد يعبر عن ذلك بقوله ردا على سؤاله حول سبب توقفه عن الكتابة: "منذ فترة استغنوا عن خدماتى يا سيدى. علمت بذلك من خطاب وصلنى بالبريد وقد جاء فيه أن الجريدة تستغنى عن خدمات عدد من المحررين ومنهم طه حسين!"[1]

وفى عام ١٩٦٥ أهدت جامعة بالرمو بإيطاليا درجة الدكتوراه الفخرية للدكتور طه حسين، وكانت صحته أيضا فى هذه الفترة قد ضعفت عن ذى قبل، خاصة بعد الجراحة التى أجريت له فى عام ١٩٦١.. إذ لم يعد قادرا على تحمل مشقات السفر

---

(١) ما بعد الأيام د.محمد حسن الزيات. مجلة المصور فى ١٩٨٢/٥/٢١.

إلى الخارج لتلقى الدرجة الفخرية من الجامعة ولحضور الاحتفالات التقليدية التى تقام فى مناسبة منحها.. لذلك كلفت الجامعة سفير إيطاليا بالقاهرة "السنيور سورو" بأن يحمل الدكتوراه الفخرية إلى طه حسين فى مسكنه فى رامتان. وقد حمل السفير معه وهو يقوم بهذه الزيارة فى وقتها ترجمة إيطالية للجزءين الأول والثانى من كتاب الأيام.

وفى العام نفسه أعلن الرئيس الراحل عبد الناصر منح العميد قلادة النيل بمناسبة الاحتفال بعيد العلم.. ولم يتمكن العميد من حضور حفل هذه القلادة أيضا لمرضه فأوفد الرئيس عبد الناصر كبير الأمناء إلى "رامتان" ليتسلم العميد هذه القلادة!

* * *

ولسوف نترك المساحة المتبقية من هذه الأوراق للدكتور الزيات الذى يحكى لنا بالتفصيل عن حياة العميد وهو قعيد المرض فى فيلته "رامتان".. على مدى السنوات التى سبقت رحيله عن عالمنا فى عام ١٩٧٣.. وقد ظل ينتظر هذا الرحيل وهو نصف نائم على سريره بحجرته بالدور الأول فى فيلته.

ففى عام ١٩٧٠ يطلب العميد من أمين جامعة الدول العربية الاعتذار عن رئاسة اللجنة الثقافية نظرا لشدة مرضه، ولكن مجلس الجامعة يقرر فى شهر مارس من العام نفسه وبالإجماع تمسكه برئاسة طه حسين للجنة لأن العمل الثقافى العربى بحاجة إلى علمه وخبرته وإرشاداته.

ويقبل عام ١٩٧١، وطه حسين وزوجته وحدهما فى رامتان وكان حريصا مع مرضه على أن يحضر جلسات المجمع اللغوى ولا يتخلف عنها إن استطاع، ولا يزال يقرأ كثيرا، ولكنه لا يملى كثيرا، كما بدأ يستقبل العدد القليل من الأصدقاء والزملاء والتلاميذ الذين يحضرون لزيارته.

وطه حسين بدأ يعتب لأن كثيرا من الكتاب المصريين لم يعودوا يرسلون إليه كتبهم وهو يعلن ذلك فى بعض أحاديثه ويتلقى اعتذارات عن هذا التقصير.

وفى أول عام ١٩٧٢ أسعده أن يعلم أن ابنته وأسرتها فى طريقهم إلى القاهرة، فقد عين زوجها الدكتور الزيات وزيرا للدولة فى وزارة عزيز صدقى، وطه حسين ينتظر لقاء ابنته وأولادها وقد فارقوا مرحلة الصبا.

ثم تعدل الوزارة ويسند إلى صهره وزارة الخارجية، وطه حسين يقول له: "لن تكون لنا وزارة خارجية جديرة بهذا الاسم طالما بقى جزء من أرضنا يعانى الاحتلال..".

* * *

وتقترب ساعات الوداع أكثر وأكثر.. حيث لم يتبق منها سوى القليل.. وكان لا يعرف مابها من تفاصيل إلا المقربون من العميد. حيث كان طريح الفراش حتى النهاية. وكان لساعات حياته الأخيرة شهود سجلوا لنا انطباعاتهم بصدق، غير الذى تحدثت عنه فى حينه كل الصحف والمجلات المحلية والعربية والدولية.

قال الدكتور الزيات عن هذه الساعات: "فى فجر اليوم الثامن والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٩٧٣.. بتوقيت نيويورك، وهو يوم رحيل طه حسين طلبنى مدير مكتبى فى وزارة الخارجية بالقاهرة السفير محمد شكرى لينعى إلىّ طه حسين.

كنا فى اليوم الثانى والعشرين من أيام الصراع العسكرى والسياسى الذى بدأ فى العاشر من رمضان، وكان مطار القاهرة مغلقا أمام طائرات المدنيين.. ولكن القاهرة أبلغتنى أن طائرة عسكرية مصرية ستنتظرنى فى مطار روما، فركبناها ولم يكن فيها من الركاب سوى زوجتى وابنتى منى وسواى!.

وتحركت الطائرة، ثم حلقت. وأرسلت البصر من نافذتها إلى حقول إيطاليا جرداء بعد موسم الحصاد، وإلى جبالها وقد ابيضت قممها بعد ابتداء موسم الثلوج، ثم لم أعد أرى، وقد أصبحنا فى سماء البحر الأبيض المتوسط سوى الماء والسحاب..

أغلقت عينى أدعو إليهما بالنوم فلا تستجيب: وتزاحمت على جفنى المغلقتين خواطر الحرب والسلام. كما تزاحمت على جفنى كذلك فى الوقت نفسه صورة من حياة الرجل الذى ينتظر جثمانه فى أحد مستشفيات القاهرة وصولنا لنشيعه.

فأما ما كان يرهق ضميرى فى رحلتى تلك الطائرة من حديث الصراع العسكرى والسياسى، لتحرير الأرض وانتزاع الحق، فله حديث غير هذا الحديث فى مكان غير هذا المكان.. وأما طه حسين فإنى أذكر مقابلتى له آخر مرة لا أنساها.. ذهبت أودعه فى غرفة نومه قبل سفره إلى إيطاليا فى رحلة الصيف المعتادة. واعتذر عن مصاحبته لوداعه بالإسكندرية كعادتى كل عام لانشغالى.. قال لى: ماذا يشغلك، وماذا يفعل وزير الخارجية فى القاهرة وفى العالم العربى؟! وقد مضى على احتلال أراضينا سبعة أعوام. قلت: أما أنا فإنى أردد بيت الشعر الذى تعلمته منك وهو: "ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم".

فسكت لحظة وارتفعت هامته وسأل في جد شديد: وإذن لا نسافر هذا الصيف؟! قلت: بل تسافر في حفظ الله، وتعود مستريح الجسم مطمئن النفس والضمير. ساد الصمت ثم قطعه بالسؤال عن عدد الجامعيين الذين تم تجنيدهم في القوات المسلحة المصرية. وكنت أعرف فأخبرته به.

وفي الثالث من أكتوبر عام ١٩٧٣ تصل الباخرة "أسبريا" إلى الإسكندرية تحمل طه حسين وزوجته عائدين من رحلة الصيف. وفي السادس من أكتوبر يعرف طه حسين أن جيش مصر قد تحدى ما جمع له العدو من قوة لترهيبه وتضطره إلى ذل واستسلام وأن جيش سوريا يقوم بنفس التحدى.

وفي يوم قبل رحيل العميد كنت أجلس في مقعدي بالجمعية العمومية للأمم المتحدة عندما أقبل المستشار عمرو موسى يخبرني أن الأمم المتحدة قد اختارت طه حسين من بين العشرة الذين ستمنحهم المنظمة الدولية جائزة حقوق الإنسان هذا العام. وأن رئيس الجمعية العمومية سيبرق إليه يهنئه بذلك-ويرجوه الحضور في شهر سبتمبر المقبل إلى نيويورك ليتسلم الجائزة بنفسه. وقد وصلت البرقية إلى مصر وطه حسين يودع الحياة. !

وفي رامتان، في الدار التي خلت من صاحبها، استقبلت

يوسف السباعي وزير الثقافة، وصوفي أبو طالب وكيل جامعة القاهرة، كان يوسف السباعي يرى أن يبدأ تشييع جنازة الرجل من جامع عمر مكرم، حيث توجد عادة الجماهير التي يمكن أن تشارك في تشييع الجنازة، ولكنى فضلت أن يبدأ تشييع الجنازة من بيته الذى أحبه.. من جامعة القاهرة.

وتجمع المشيعون فى قاعة الاحتفالات الكبرى فى الجامعة فتمتلىء بجموعهم.. فليس فيها كما يقال موضع قدم.. ويحتشد فى موكب الجنازة كل الناس، وحسين الشافعى ومحمود فوزى نائبا رئيس الجمهورية يحاولان استبقاء مؤنس طه حسين -الذى أسرع بالحضور من باريس لتشييع الجنازة فى الصفوف الأولى للمشيعين برغم الزحام الشديد ورجال الدولة فى مصر وممثلو الدول الأجنبية فيها. ثم زملاؤه فى المجمع وفى الجامعات وتلاميذه ومؤيدوه.

ولا يكاد الموكب أن يخرج من جامعة القاهرة حتى تنضم إليه جماهير من الشعب، يعبرون معه النيل من الغرب إلى الشرق ويقفون ألوفا خارج مسجد صلاح الدين ريثما تتم على جثمانه صلاة الجنازة وفى عيونهم دموع لا يخجل منها الرجال.

ويقول رجل عجوز لابنه الشاب، وكلاهما يبكيان: "أنت

يابنى تبكى طه حسين لأنك تعلمت منه وقرأت له وسمعت أحاديثه فى الراديو.. أما أنا يابنى فلم أتعلم منه ولكنى أبكيه لأنه هو الذى مكننى منذ ٢٣عاما من تعليمك..“

* * *

وهذه كلمات أخرى.. سطرتها رفيقة حياة العميد.. السيدة سوزان طه حسين، وقد سجلت لنا فيها.. أخص مشاعرها.. حين عايشت الأنفاس الأخيرة التى خرجت من بين ضلوع العميد.. قبل أن يسلم روحه وتصعد إلى السماء.

قالت سوزان طه حسين.. عن لحظات الرحيل هذه: ”لم يكن يبدو عليه المرض إطلاقا ذلك السبت ٢٧ أكتوبر. ومع ذلك، ففى نحو الساعة الثالثة من بعد الظهر شعر بالضيق. كان يريد أن يتكلم، لكنه كان يتلفظ الكلمات بعسر شديد وهو يلهث، وناديت طبيبه والقلق يسيطر على، لكنى لم أعثر عليه. فركبنى الغم. وعندما وصل. كانت النوبة قد زالت، وكان طه قد عاد إلى حالته الطبيعية. وفى تلك اللحظة وصلت برقية الأمم المتحدة التى تعلن فوزه بجائزة حقوق الإنسان. وانتظاره فى نيويورك فى العاشر من ديسمبر لتسلم الجائزة، وكان الطبيب هو الذى قرأها له، مهنئا إياه بحرارة، غير أنه لم يجب سوى بإشارة من يده كنت أعرفها

جيدا كأنها تقول: "وإيه أهمية ذلك؟" وكانت تعبر عن احتقاره الدائم، لا للثناء والتكريم، ولا للأنوطة والأوسمة والنياشين.

وبعد أن حقنه الطبيب بالكورتيجين، وأوصاه بتناول بعض المسكنات الخفيفة فى الليل، غادرنا وهو يطمئننى أن مريضنا سوف يرتاح الآن. ثم غادرنا السكرتير بدوره فى الساعة الثامنة والنصف، وكذلك الخدم. وبقيت بمفردى معه. كان يريد منى أن أجعله يستلقى على ظهره. وكان ذلك مستحيلا بسبب ظهره المسلخ، وأصغى -وما أكثر ما يؤلمنى ذلك- إلى صوته يتوسل إلى كصوت طفل صغير قائلا: "ألا تريدين؟ ألا تريدين؟".

وبعد قليل، قال: "إنهم يريدون بى شرا. هناك أناس أشرار".

ـ "من الذى يريد بك الشر يا صغيرى؟ من هو الشرير"؟.

ـ كل الناس..

ـ حتى أنا؟.

ـ لا، ليس أنت.

ثم يقول بسخرية مريرة ذكرتنى بسخريته فى أيام مضت: "إية حماقة؟! هل يمكن أن نجعل من الأعمى قائد سفينة؟".

من المؤكد أنه كان يستعيد فى تلك اللحظة العقبات التى كان يواجهها والرفض الذى جوبه به، والهزء بل الشتائم من أولئك

الذين كانوا بحاجة لمرور زمن طويل حتى يتمكنوا من الإدراك.

غير أنه لم يستمر، بل قال لى فقط، كعادته فى كثير جدا من الأحيان: "اعطنى يدك". وقبّلها .

ثم جاءت الليلة الأخيرة. نادانى عدة مرات، لكنه كان ينادينى على هذا النحو بلا مبرر منذ زمن طويل. ولما كنت مرهقة للغاية، فقد نمت– نمت ولم أستيقظ وهذه الذكرى لن تكف عن تعذيبى[1]

ونحو الساعة السادسة صباحا جعلته يشرب قليلا من الحليب، وتمتم بعض كلمات. ونزلت أعد قوتنا. ثم صعدت ثانية مع صينيتي ودنوت من سريره وناولته ملعقة من العسل بلعها.. وبدا لى بالغ الشحوب عندما استدرت إليه بعد أن وضعت الملعقة على الطاولة وهيأت البسكويت، لا تنفس ولا نبض. ففعلت ما كنت أفعله فى لحظات غشيانه العديد، لكنى كنت أدرك أن ذلك كان بلا فائدة، فناديت الدكتور غالى، ووصل بعد نصف ساعة.

وجلست قربه، مرهقة متبلدة الذهن وإن كنت هادئة هدوءا غريبا (ما أكثر ما كنت أتخيل هذه اللحظة المرعبة). كنا معا،

(١) معك.. سوزان طه حسين كتاب أكتوبر.

وحيدين، متقاربين بشكل يفوق الوصف. ولم أكن أبكى فقد جاءت الدموع بعد ذلك ولم يكن أحد يعرف بعد بالذى حدث. كان الواحد منا قبل الآخر، مجهولا ومتوحدا، كما كنا فى بداية طريقنا. وفى هذا التوحد الأخير، وسط هذه الألفة الحميمة القصوى، أخذت أحدثه وأقبل تلك الجبهة التى كثيرا ما أحببتها، تلك الجبهة التى كانت من النبل ومن الجمال بحيث لم يجترح فيها السن ولا الألم أى غضون، ولم تنجح أية صعوبة فى تكديرها.. جبهة كانت لا تزال تشع نورا، "يا صديقى، يا صديقى الحبيب". وظللت كل الصباح، حتى عندما لم نعد وحدنا. أقول وأكرر القول: "يا صديقى". لأنه قبل كل شىء وبعد كل شىء وفوق كل شىء كان أفضل صديق لى. وكان، بالمعنى الذى أعطيه لهذه الكلمة، صديقى الوحيد.

ما كان من الممكن لهذه البرهة من العذوبة الغامرة أن تستمر. كانت ابنتى فى نيويورك وكان ابنى فى باريس، ولا يمكننى أن أصف المساعدة والعزاء اللذين غمرنى بهما أوائل الذين هرعوا إلى من الأقربين. إن ما غمرنى به ذلك اليوم الدكتور غالى وجان فرنسيس وسوسن الزيات وزوجها ومارى كحيل والأب قنواتى.. كان فوق كل تصور وفوق كل تعبير. لقد حمل محمد شكرى على

كاهله أعباء كل الإجراءات. وعندما قلت له ذلك: "إنى وحيدة تماما" أجابنى بتلك الكلمات: "لا تقولى ذلك. فكل البلد من وراءك" وكذلك بكلمات إن بدت فى ظاهرها قاسية، فقد كانت فى حقيقتها بالغة الجمال: "إنه لم يعد يخصك".

أما القس الشاب الجديد لحى الزمالك، فقد أرسل لى هذه الآيات من سفر أيوب:

"أما أنا فقد علمت أن وليى حى
والآخر على الأرض يقوم
وبعد أن يفنى جلدى هذا
وبدون جسدى أرى الله".

(الإصحاح التاسع عشر "٢٥-٢٦")

ولم يسبق له أن رأى طه، وكان قد قرأ فى لبنان كتابه "الأيام" وتمنى من كل قلبه أن يتعرف إليه. وفكرت أن بوسعه أن يرى هذا الوجه حتى فى سكون الموت. ولقد رآه.

كان هذا الوجه جميلا، ولم يكن له -شأنه شأن جبهته- من العمر ٨٣ عاما! وكانت ترتسم عليه هذه الابتسامة الرقيقة التى كنا نحبها. وكان الشعر الذى بقى كثيفا، يكاد يكون رماديا. أما الجسد، فقد كان يستسلم للراحة بهدوء. كل شىء كان يعبر عن

الصفاء والسلام. ولن تنسى انفعالها عندما كانت تنزع من أصبعه خاتم الزواج لتعطينى إياه، فقد انغلقت اليد التى بقيت لينة على كف صديقتنا، كأنما لتقول لها: إلى اللقاء . ليس من الممكن أن يتصور المرء أنه كان ثمة احتضار، لا، فقد كان اليوم يوم أحد، اليوم الثالث من رمضان، ساعة الفجر، ساعة التجلى الإلهى وإنى لعلى ثقة من أن الله كان يصحبه على هذا النحو دون أن أستشعر ذلك، إذ ما شأنى فيما يجرى بينهما؟

كان من الصعوبة بمكان على ولداى أن يحضرا. كانت مصر منتصرة، لكن الحرب لم تكن قد انتهت، وكان المطار مغلقا. واستطاعت ابنتى وصهرى الذى كان وزيرا للخارجية وكان فى الأمم المتحدة آنذاك، الوصول مساء الإثنين. وأعيد فتح المطار يوم الثلاثاء، ووصل ابنى من عمله فى باريس إلى البيت فى ساعة متأخرة من الليل، وعلمت بعد ذلك أنه لم يجد سيارة يستأجرها، وكان الحزن والإجراءات الإدارية قد أنهكته، فقد أغمى عليه فى المترو، الأمر الذى فوّت عليه الطائرة التى كان يفترض أن يلقى فيها أخته وصهره. "مساء الخير يا أمى"، وألمح ابتسامة الحنان والشجاعة على الوجه المنهك الذى تجلى على فى منتصف الدرج حيث كنت أهرول للقائه.

لن أتحدث شيئا عن المأتم. فقد علقت عليه الصحف والإذاعة والتليفزيون مطولا. لكنى سأقول شيئا ما كان يمكن للصحفيين أن يعرفوه. فأمام المسجد، كنت وابنتى أمينة ننتظر فى السيارة انطلاق أولئك الذين كانوا سيذهبون إلى المقبرة. وكان كثير من أهالى الحى فى ذلك المكان ينتظرون أيضا فى صمت عميق. وكان من بينهم، بالقرب منا، صف من الأطفال والراشدين. وكنت أكرر لنفسى: «إنه من أجلهم ما بذل طه من جهود كثيرة». واليهم إنما كنت أود الحديث ذلك الصباح، وممدت يدى نحو أقربهم، فأذهلته حركتى فى البداية ثم ما لبث أن نظر إلى بابتسامة جميلة وتناول يدى. وسرعان ما امتدت إلى الأيادى: عشرون، خمسون... وفى تلك اللحظة انطلقت السيارة، فتراكضوا على مقربة من بابها وهى تنطلق، وكانت يدى لاتزال خارجها، لعلهم لو انتزعوها تلك اللحظة منى ما كنت لأحس بأى ألم.

***

وإذا كانت رفيقة عمر العميد.. قد حدثتنا عن اللحظات الأخيرة.. من قبل أن يخرج من فيلته فى طريقه إلى القبر.. فسوف يتبقى لنا فى نفس الحديث.. معرفة تفاصيل الصورة التى نقلتها الصحف لجنازته.. التى خرجت بعد ثلاثة أيام من

رحيله.. حيث ظل جثمانه محنطا بثلاجة مستشفى العجوزة. هذه الفترة لحين حضور زوج ابنته الدكتور الزيات وزير خارجية مصر فى ذلك الوقت. الذى كان متغيبا فى الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك ابنه مؤنس الذى قدم من باريس..

ففى أول نوفمبر من عام ١٩٧٣ نشرت كل الصحف المصرية وبالتفصيل ما وقع يوم جنازة الفقيد.. وقالت هذه الصحف فى هذه التفاصيل:

تحولت جنازة عميد الأدب العربى د.طه حسين التى كان مقررا لها أن تكون جنازة رسمية.. إلى وداع شعبى شارك فيه المئات من أبناء الشعب الذين تراصوا منذ الصباح الباكر على جانبى الطريق الذى كان مقررا أن يمر به موكب العميد من تحت قبة جامعة القاهرة وحتى مسجد صلاح الدين بالمنيل، مارا بكوبرى الجامعة.. فقد وقفوا ليودعوا المفكر الأديب.. أول من نادى بأن يكون العلم حقا مشاعا للجميع كالماء والهواء.

وما أن تحرك موكب الجنازة الساعة ١١,١٥صباحا خارجا من قاعة الاحتفالات.. وكان الجثمان ملفوفا بعلم مصر.. وسار طلبة الجامعة الذين ارتدوا زى المقاومة الشعبية. وسار خلفه كبار الشخصيات المصرية من بينهم نائبا رئيس الجمهورية ووزراء

مصريون وعرب بينهم من كانوا تلامذة للفقيد وأساتذة الجامعات ومديريها وبعض السفراء العرب والأجانب.. وكان يتقدم الجثمان أكثر من ١٠٠ باقة من الورود والأوسمة والنياشين، حتى نسيت الجماهير نفسها فأحاطت بالفقيد الراحل وساروا مع المشيعين وهم يكبرون باسم الله ووحدانيته.!

وأما صحيفة أخبار اليوم فقالت: إن طه حسين أوصى بأن يدفن بالقاهرة.. وكان يوسف السباعى وزير الثقافة آنذاك قد طلب من الفنان عبد القادر رزق القيام بتصميم مقبرة عميد الأدب العربى والتى تم بناؤها فى البساتين.

وتوسعت جريدة الأخبار أكثر فى نقل وصف جنازة العميد حيث قالت:

من تحت قبة جامعة القاهرة جرى مشهد الوداع الأخير لعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين.. خرج منها جثمانه يحيط به أكثر من ٥٠ ألف فى موكب مهيب، وحوله مئات من باقات الزهور. تتوسطها على كسوة من القطيفة الدرجات والأوسمة والقلادات والنياشين.. ومر جثمان العميد أمام كلية الآداب التى كان أول عميد لها.

وفى مقدمة الجنازة سار نائبا رئيس الجمهورية والوزراء والسفراء ورجال الدين ومئات من الأدباء والمفكرين من مصر والبلاد

العربية.. وفى الصفوف الأولى توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف وهبى والدكتور لويس عوض ويوسف إدريس الذين كانوا يحيطون بالدكتور مؤنس طه حسين وشقيقيه عبدالمجيد حسين ويس حسين.

وفى العاشرة من صباح نفس اليوم كما ذكرت ذلك الصحيفة وصل جثمان العميد إلى جامعة القاهرة من مستشفى العجوزة. وقد رقد هناك لمدة ٣ أيام فى ثلاجة المستشفى.. أحاطت بالجثمان كسوة من الحرير الأخضر، وأخذ مكانه فى مدخل قاعة الاحتفالات الكبرى التى كان المشيعون قد توافدوا عليها منذ الصباح الباكر.

وفى الحادية عشرة صباحا، تحركت الجنازة من القاعة الكبرى، مارة بحرم جامعة القاهرة، إلى ميدان الشهداء ثم اخترقت كوبرى الجامعة حتى مسجد صلاح الدين، حيث أقيمت صلاة الجنازة على الراحل الكبير.

واستغرق موكب الجنازة ساعة كاملة من الجامعة حتى المسجد، وهى مسافة لا تستغرق سوى ١٠ دقائق سيرا على الأقدام، قبل أن يتم نقل الجثمان إلى المقبرة التى أقامتها الدولة فى البساتين.

وفى برواز فى نفس الصفحة.. نشرت الأخبار.. أن قرينة الرئيس السادات توجهت إلى منزل الدكتور طه حسين فى فيلا رامتان بالهرم، وقدمت العزاء إلى السيدة قرينته وابنته السيدة أمينة قرينة الدكتور محمد حسن الزيات.

* * *

(٤) توفيق الحكيم
يموت فى القاهرة ورواده ينتظرونه بالإسكندرية

الذى ينظر مقدار بوصة واحدة.. فوق السطر الذى أكتب فيه هذه العبارة سوف يقرأ عنوانا كتبنا فيه: «الذى عاش بيننا ٨٩ عاما.. ورحل بعد صديقيه العقاد وطه حسين».. والمقصود بطبيعة الحال هو رائد الفكر والتنوير توفيق الحكيم.. ذلك لأن الظروف الطيبة قد أتاحت له مصاحبة هذين العملاقين منذ أن بدأوا الطريق الفكرى سويا!

ولمن يريد معرفة المزيد عليه الرجوع لما سبق وكتب عن هذين الصديقين اللذين رحلا قبل توفيق الحكيم بسنوات قليلة.. الأول فى عام ١٩٦٤ عن عمر يناهز الخامسة والسبعين.. والثانى فى عام ١٩٧٣ عن عمر يناهز الرابعة والثمانين.

وقد عبر توفيق الحكيم نفسه عن مدى تأثره برحيل هذين الصديقين العملاقين فى عبارة ذكر فيها: «لقد أحلت قلمى إلى المعاش بناء على طلبه، فقد لبث يكتب بلا انقطاع نحو ستين عاما وصاحبه اليوم فى الثمانين، وصديقاه المعاصران طه حسين والعقاد.

أولهما ترك قلمه للمرض فى مثل هذه السن. والثانى ترك قلمه للقاء ربه فى الخامسة والسبعين. لذلك لم يبق له الآن غير الكلام..».

ويؤكد الكاتب الصحفى صلاح منتصر. الذى سجل لنا هذه العبارة.. إن توفيق الحكيم كتب هذا الكلام فى ورقة خاصة سلمها إليه بمكتبه فى نهاية عام ١٩٨١.. بمناسبة إجراء حوار صحفى معه.

* * *

وحتى بعد هذا التاريخ الذى أحال فيه توفيق الحكيم قلمه إلى المعاش أمام شهود عيان.. معتقدا أن أيامه الأخيرة فى طريقها إلى النهاية عاش بيننا لأكثر من ست سنوات.. قاسى خلالها العديد من الأمراض. كان من أخصها أمراض الشيخوخة والوحدة.. بعد أن مات ابنه إسماعيل ورحلت من بعده زوجته.

ففى عام ١٩٨٩ رحل هذا العملاق.. وقبل هذا التاريخ بثمانية وثمانين عاما ولد لأبوين مصريين بحى محرم بك بالإسكندرية وقد ظل يعيش بها حتى نال الشهادة الثانوية التى أهلته لدخول كلية الحقوق لدراسة القانون.. وكانت آمال أسرته العريضة تنحصر فيما كان عليه أبوه القاضى إسماعيل الحكيم الذى استمد كيانه الاجتماعى من هذا المنصب الرفيع.

ولكـــن لحكمـــة لم نكن نعرفهـــا فى حينهـــا ولا حتى هو أو أســـرته.. تغيرت وجهة حياته نحو المســـيرة إلى مكان آخر.. لا يمـــت بأية صلـــة لا إلى القانون ولا إلى العاملين به.. هذه الحكمة تجلت فى ريادته لأحد فروع هذا الفن الجميل الذى أضاف إليه الكثير وتغنى به فى فن الكتابة المسرحية هذا بالإضافة إلى إتقانه العديـــد من ألوان الأدب والفكر.. وارتياده آفاقا حضارية أراد من خلالها الوصول إلى الكمال.

وقـــد برزت على الطريق نظريـــة التعادلية التى أراد أن يبثها فـــى حياتنا.. ولكنها لأســـباب غير منطقيـــة لم تصل إلى ما كان يرمـــى إليه توفيق الحكيم مـــن أهداف. وتلك كانت بعض مظاهر عظمـــة هذا الرجل التى أهلته لكى يتربع على عرش هذه الحياة من بعد صديقيه طه حســـين والعقاد.. وأســـتاذهما أمير الشـــعراء شوقى..

ولو استعرضنا سويا مسيرة حياة هذا العملاق.. سوف تكشف أكثـــر وأكثر مواطن العظمة فى حياته ســـواء من قبل أن يشـــتغل بالفكر أو من بعد ذلك.. مع التســـليم بشـــىء هام وعظيم.. هو أن لحظات الميلاد نفسها هى التى قد تدفع الإنسان إلى نهايته التى لا يعرف مداها أو منتهاها! ســـواء أصيب بأمراض الشـــيخوخة

أو بغيرها.. لأنه مع تقدم الأيام وزحف السـنين إلى الصدور وإلى القلوب يهيئ الإنسـان نفسـه لبلوغ النهاية.. وذلك ما عبر عنه توفيق الحكيم نفسه فى الكثير من أحاديثه الصحفية.. خاصة فى السنوات الأخيرة من حياته.. وكما سوف يمر علينا بعد قليل!

* * *

وبالعودة إلى ما سطره التاريخ عن مسيرة حياة توفيق الحكيم.. نجـد أن توفيـق الحكيم من مواليـد ٨ أكتوبـر ١٨٩٨.. واسمه الحقيقى بالكامل حسـين توفيق إسماعيل الحكيم.. واسم الشهرة كما نعلم توفيق الحكيم.. وهو كما يبدو اسما مركبا لشخص واحد.

وكان مـن المفـترض فى إطار الجو التقليـدى الذى تربى فيه أن يسـير على نفس طريق والده الذى عمل بالقضاء؛ ولذلك فقد أدخله مدرسـة الحقوق، وأرسـله إلى باريس لدراسة الدكتوراه، ولكنه فى باريس نسـى القانون والدكتوراه التى سـافر من أجلها وانجذب إلى الأدب والفن والمسرح.

وعلى مدى الأعوام الثمانية والثمانين التى عاشـها بيننا ترك وراءه أكثرمـن ١٠٠ مسـرحية و ٦٢ كتابـا كان أولها أو أعظمها كتـاب «عودة الـروح» الذى أصدره فى عـام ١٩٣٣.. وآخر هذه الكتب كتابه الذى صدر فى عام ١٩٨٣ بعنوان «مصر بين عهدين».

وقد تزوج توفيق الحكيم فى سن متأخرة وكان ذلك فى الخامسة والأربعين من عمره وأنجب إسماعيل وزينب. وفى عام ١٩٧٧ رحلت زوجته وبعدها فى أكتوبر ١٩٧٨ مات ابنه إسماعيل وهو فى سن الثلاثين.

ونستطيع أن نؤكد وفق ما جاء فى هذه السطور القليلة عن مسيرة حياة توفيق الحكيم.. أن أيامه الأخيرة قد بدأت تشده بقوة إلى النهاية المحتومة، حيث الموت والرحيل من نهاية عام ١٩٧٨.. إذ شعر بالوحدة وبدأت أمراض الشيخوخة أيضا تزحف إلى نفسه.

ولكننا من أجل المزيد من المعرفة عن مشوار حياة هذا العظيم الذى سطر بعض ملامح هذا المشوار بقلمه فى أكثر من مناسبة خاصة فى كتابه «سجن العمر».. فسوف نعرض لبعض التفاصيل المرجوة حتى تكتمل المعرفة المنشودة فى هذا السياق.. وكانت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد من أكثر المصادر التى تغنت بهذه التفاصيل لأهميتها فى اكتشاف شخصية الحكيم..ففى عام ١٩١٩ شارك فى الثورة بأول عمل أدبى مسرحى.. حين أخرج لنا مسرحيته أو روايته «الضيف الثقيل»، وكانت حوارتها تدور حول الاحتلال البريطانى. وقد رفضت السلطات القائمة آنذاك السماح بتمثيلها فقبض على توفيق الحكيم أثناء ثورة ١٩١٩..

وحقق معه وأعمامه على إثر ضبط منشورات بمنازلهم. وأكثر من ذلك. فقد نظم توفيق الحكيم الشعر والزجل بل وعالج التلحين. وكل ذلك كان من وحى الثورة.

ومضى توفيق الحكيم فى طريق الفن ضاربا عرض الحائط برغبة الأسرة.. فكتب لفرقة عكاشة رواية «العريس» التى مثلتها فى عام ١٩٢٤.. كما مثلت له نفس الفرقة مسرحية «على بابا» وهى من نوع الأوبريت، ثم أخرجت له أيضا مسرحيتى «خاتم سليمان» و«المرأة الجديدة».

وقد عاصر توفيق الحكيم فى الفترة نفسها مجموعة من المؤلفين المسرحيين من أمثال الشيخ يونس القاضى وعباس علام وسليمان نجيب وبديع خيرى وغيرهم.. وهم من الذين كانوا يكتبون المسرحيات آنذاك لفرق أولاد عكاشة.

ولولا قرار الأسرة بسفر ابنهما إلى باريس أملا فى تحقيق أمنية الحصول على الدكتوراه فى القانون لاستمر يعيش فى هذا الوسط الفنى.. ولتوقف رصيده الفكرى عند هذا الحد.. إذ يعتبر توفيق الحكيم نفسه وعلى حد قول الدكتورة نعمات أحمد فؤاد هذه الرحلة الحدث الذى غير مصير حياته ومفاهيمه وفتح عينيه على قيم جديدة للأدب والحياة.

فمـا كان ليخطـر بباله قط، أن الأدب يحتاج إلى اطلاع واسـع وعميق. كما راعه أن ما نسـميه فى مصر مسـرحا إنما هو فى أوروبا قسم نابع من أقسام الأدب. وحين يعنى المسرح فى أوروبا لونا رفيعا من الفن ينظر إليه فى مصر على أنه خروج على الأدب «قلة حياء» وكتابه مشخصاتية ولايطالون الأدباء ولايحسبون عليهم.

ثـم عاد الحكيم مـرة أخرى إلى مصر فى عـام ١٩٢٨ وعمل بالنيابة المختلطة بالإسـكندرية لمدة عام.. انتقل بعدها إلى القضاء الأهلـى لمدة خمس سـنوات متنقلا بين طنطا ودمنهور ودسـوق وفارسـكور وإيتاى البـارود وكوم حمادة، وقد سـجل انطباعاته عـن العمل فى هذه الفترة فـى كتابه الجميل «يوميات نائب فى الأرياف».. ثم كتابه «ذكريات الفن والقضاء».

وفى حياة الحكيم العظيم، كان هناك نوعان من الانتقال.... الأول تمثل فى الخروج من مصر إلى أوروبا.. أما الخروج الثانى.. فكان من مصر إلى الريف.. وإن لم يبلغ خروجه الأخير فى تأثيره شأن انتقاله من مصر إلى أوروبا.

وبعد فترة عمل فيها الحكيم بوزارة المعارف مديرا للتحقيقات، تركهـا واشـتغل بالصحافة فـى أخبار اليوم.. علـى أن اتصاله بالصحافة كان سباقا على أخبار اليوم.. فقد كتب وهو فى وزارة المعارف كثيرا فى «مجلتى».

ثم عادت الوظائف فشدت إليها «توفيق الحكيم» فعمل مديرا عاما لدار الكتب، ثم عضوا متفرغا بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ثم مندوبا لمصر فى اليونسكو فى عام ١٩٥٩.. بعدها عاد إلى مصر فى مارس عام ١٩٦٠.

وبعد عودته عين عضوا بمجمع اللغة العربية. وفى فبراير من عام ١٩٦٢ عين مقررا للجنة جوائز الدولة للفنون.. وكان آخر منصب تولاه شرفيا هو رئاسته لاتحاد كتاب مصر.. والذى ظل رئيسا له حتى وفاته!

وقد نوقشت عدة رسائل للماجيستير والدكتوراه فى حياته وفكره.. كما تم تكريمه فى حياته فى أكثر من مناسبة.. ففى عام ١٩٥١ منح جائزة الدولة للأدب عن كتابه «مسرح المجتمع» وقلده جمال عبد الناصر قلادة الجمهورية للأدب والفكر فى عام ١٩٥٨.. وفاز بجائزة الدولة التقديرية فى الأدب عام ١٩٦٠ من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.. كما حصل فى عام ١٩٨٣ على درع الثقافة.. ثم رشح لنيل جائزة نوبل للآداب فى أعوام ١٩٨٠ و ١٩٨٢.

وفى فترة عمله بأخبار اليوم اشتهر بأنه عدو المرأة، وبدأت هذه الشهرة بشائعات أطلقها زملاؤه عليه، وقد ساعد هو فى

تقويتهـــا بأرائه التى كان يعلنها عن المرأة فى كل مناســبة برغم أن جلســته المفضلــة فى أخبار اليوم على حــد تأكيد العديد من الصحفيين كانت فى حجرة المحررات!!

وكان دائمــا يعلن أنه يفضل الشــنق على الــزواج، ولكن هذا العدو اللدود للمرأة.. كما كان يعلن دائما وقع فى شباك الزواج.. فتزوج من السيدة «سيادات بيومى».. وكما كان هذا الزواج مفاجأة للجميع فقد كان أيضا أغرب زواج فى العالم. حيث كتب توفيق الحكيم كما يقال عقدا مكونا من (١٥) بندا واشــترط على عروسه أن توقع أمام كل بند بالعلم قبل أن يتم الزواج، وكان من أغرب هــذه البنود ألا يتــم الإعلان عن هذا الزواج!، وألا يخرج معها، وألا تفاتحه فى أمر شــراء ســيارة وأن يعطيها فقط مائتى جنيه فى الشهر.

والغريب كما يقول بذلك الراوى إن الســيدة «سيادات» قبلت هــذه الشــروط جميعا بدليــل أن زملاء الحكيم فــى أخبار اليوم اكتشفوا زواجه بالصدفة!!

وأنجــب توفيــق الحكيم كما ســبق وذكرنا ابنــا وبنتا.. هما إسماعيل الحكيم الذى اختار اسمه على اســم والده.. وقد عشــق الموســيقى وكون فرقة موسيقية مفضلا الفن على العمل فى النيابة

كمـا كان يحلم والده.. وقد توفى إسماعيــل فى عام ١٩٧٨ بعد إصابته بتليف فى الكبد بعد عام واحد من وفاة والدته.

ثـم زينب التى لازمته حتى آخـر لحظة من لحظات عمره.. ولســوف يكون لنا معها وقفة نســمع من خلالها شهادتها التى ســجلتها عما عاصرته مــن أحداث فى الأيــام الأخيرة من قبل رحيل حكيم.

* * *

وقد قضى توفيق الحكيم الســنوات الثلاثة الأخيرة من حياته فى متاعب صحية عديدة ســواء بســبب أمراض الشــيخوخة أو أمراض الوحدة والأحزان التى توالدت عن رحيل ابنه إسماعيل. ولدينا صورة صادقة سوف ننقل بعض ملامحها لبيان مدى الآلام التى أصابــت توفيق الحكيم من بعد وفاة ابنه وهذه الصورة بكل ملامحها قد ذكرها إبراهيم عبد العزيز حين كتب لنا عن الرسائل الخاصة فى حياة الحكيم. وقد قال:

«عندما اشتد الألم على إسماعيل. نادى والده.. «آه يا بابا.» وكانت كلمة بابا أجمل كلمة يسمعها توفيق الحكيم فى حياته.. ولم يشــعر طعــم ومذاق هــذه الكلمة إلا فى هذه الســاعة. ولكن بعــد فــوات الأوان.. ففى الوقت الــذى كان فيه الحكيم يجلس

فـــى صالون البيت يتحــدث إلى الطبيب بشــأن علاج إسماعيل فى الخارج. جــاءه صوت «ناجا» أخت إسماعيل وصوت زوجة إسماعيل الثانية «هيدى» وهما تصرخان: إسماعيل مات!!

ولم يشــعر الحكيم بنفســه إلا وهو يقوم من مقامه ويقع على الأرض..، ويقوم ويقع خلال حركته من حجرة الصالون إلى شرفة البيت وهو يلطم خديه كالنساء، ثم ما هى إلا ساعة حتى جلس صامتــا يحمل على كاهله جبلا مــن الحزن المهيب، وقد بدا لمن رآه فــى ذلك اليوم متجلدا عجيبا يخفــى خلفه بركانا من الآلام والهمــوم، والأحزان والندم، وكل ما تركه فى دنياه ورقة صغيرة كتب فيها عبارة قصيرة: «كل شــىء راح ولم يبق شــىء».. ولا يملك الحكيم إلا أن يقول: «اغفر لى يا ابنى»!!

وكلما اقترب شهر أكتوبر خاصة ٢٤ منه ينتاب الحكيم حالة حزن وتبدأ نفســيته فى التعب والشــعور بالذنب اعتقادا منه أن إهماله لابنه منذ طفولته وحرمانه من حنانه كان سببا فى موته، بل كان سببا فى قتله.!

وتحــاول ابنته زينب أن تخفــف عنه بأنه لا يزال باقيا على شهر أكتوبر عدة شهور أخرى.. برغم أنها هى الأخرى تتشائم من ذلك الشــهر لأن فيه مات زوجها، وحتى والحكيم فى المستشفى

أثنـــاء مرضه الأخير يتذكر شـــهر أكتوبر فتطمئنـــه ابنته بأن هذا الشهر لا يزال بعيدا فلا يخاف ولا يجزع.

ومع بداية ذلك الشـــهر من كل عام.. يعيش الحكيم ذكريات مأساة أبوته المفقودة لإسماعيل ويتفاقم لديه الشعور بالذنب طالبا من الله الصفح والغفران.

ويـــوم الذكـــرى الأليمة فـــى ٢٤ أكتوبر من كل عام يســـتيقظ الحكيم ليرى انطباعَ ذكرى ذلك اليوم على وجوه من حوله، ممن يعيشون معه والذين يحرصون على عدم الاقتراب منه أو التحدث إليه فى هذا اليوم، إلا إذا تحدث هو إليهم أوطلب منهم شـــيئا. ما عدا ذلك يتركونه فى صمته مع أحزانه.

وقبـــل رحيل ابنه إسماعيل عاش نفس المأســـاة عندما رحلت زوجتـــه التى قيل إنها أصيبت بشـــلل أقعدها عن الحركة حتى توفيت.. وقد أصاب الحزن الشديد توفيق الحكيم على فراق هذه الزوجة المخلصة.

* * *

ويوم أن مات ابن الحكيم فى عام ١٩٧٨ كان قد بلغ من العمر ثمانين عاما..وكما سبق لنا القول بان هذا العظيم قد بدأت أمراض الشيخوخة تهاجمه بقوة وقسوة بدأت من عام ١٩٨١.. عندما قرر

اعتزال الكتابة، إلا أن الأمراض الشديدة لم تبدأ بشكل مباشر فى وضـع النهايات المحتومة فى حياة الحكيم إلا منذ عام ١٩٨٤.. عندما نقل إلى مستشفى المقاولون العرب مصابا بالغيبوبة.

ففى ٢١ أبريل من العام نفسـه، اسـتدعيت سيارة الأسعاف الخاصة بالعاملين فى جريدة الأهرام لنقل الأستاذ من بيته المطل على النيل إلى مستشـفى المقاولون العرب، إثر إصابته بهبوط فى القلب والتهاب رئوى حاد.. وقد تم إدخاله غرفة العناية المركزة ومنع الأطباء زيارته لحرج الحالة التى يجتازها.

وعلـى حد قول الكاتـب الصحفى صلاح منتصـر الذى كان مـن المتابعين لحالة توفيق الحكيـم خلال هذه الفترة.. فقد التزم أصدقاء الحكيم بعدم زيارته لتفادى إزعاجه، واستمر هذا الالتزام حتى بعد خروج الحكيم من غرفة العناية المركزة ونقله إلى الجناح رقم (٤١١) الذى أصبح منذ ذلك الوقت يحمل اسم جناح الحكيم.

وفـى التقرير الطبى الذى أصدرته المستشـفى آنذاك عن حالة الحكيم.. قال الدكتور عبد المنعم حنسب الله أستاذ الأمراض الباطنة بطب القصـر العينى إنه بعد إجراء الأبحاث والفحوصات الطبية وأهمها رسـومات القلب وأشعات الصدر.. تبين أن توفيق الحكيم كان مصابـا أصلا بقصور فى الدورة التاجية للقلب، وكان من أهم

أســبابها تصلب الشرايين الناتج عن عامل السن.. وكذلك إصابته بنزلة برد شــديدة.. وقد أدت هــذه النزلة ومع تقدم عمر الحكيم إلى إصابتــه بالتهاب رئوى.. حيث أصيــب فص كامل من الرئة اليمنــى.. مما أدى إلى انكماش الرئة، مما زاد من صعوبة التنفس حيث أصبحت الرئة المصابة بالتهاب لا تعمل بكفاءة عالية.

علاوة على ضغط الســائل البللورى على القلب، مما دفعه إلى الجانب الآخر مــن الصدر.. ونظرا لوجود قصور بالدورة التاجية فى الأصل أدت جميع هذه العوامل إلى حدوث هبوط بالقلب مما أدى إلى حالة الصعوبة الشديدة فى التنفس.

* * *

ويقول صلاح منتصر أهم أحد شــهود عيان الأيام الأخيرة فى حيــاة توفيق الحكيم.. إنه فى أواخر شــهر يوليو من عام ١٩٨٤ وكان شــهر رمضان قد بدأ: تذكرت توفيق الحكيم الذى انقطعت أخباره بعد أن دخل المستشــفى. وأصبح الإعلان عن خبر وفاته أمرا متوقعا.. ولما كنت أكتب فى الأهرام مقالا أســبوعيا فى ذلك الوقت كل يوم أحد تحت عنوان «مجرد سياســة» فقد فكرت أن أذهب إلى توفيق الحكيم وأسجل معه- كسبق صحفى - الحديث الأخير له وهو على فراش الموت وفى انتظار الرحيل.

وفــى يــوم الأربعاء ٥ يوليــو بعد الإفطار – والــكلام لا يزال لصــلاح منتصر – دخلت جناح توفيــق الحكيم.. لم يكن هنالك أحــد فى الصالون الملحــق بالغرفة التى فيها السـرير الذى ينام عليه.. لا زائر ولاممرض ولا ممرضة.. ولا صوت لأحد!!

أهكــذا يكون حال مثل هؤلاء العظماء فى أيامهم الأخيرة؟!.. إنه شىء صعب على النفس – التعليق للكاتب.

وفى هدوء ســحبت كرسيا وجلست أمام سريره، ونظرت إليه ووجدت صوتا يصرخ بداخلى: هل هذا هو توفيق الحكيم؟!

كان الرجــل عبارة عن كومة هشــة من اللحــم، وقد اختفى جســمه تحت الأغطية ولم يظهر منه سوى وجهه والطاقية التى كان يغطــى بها رأســه.. وكان الوجه بتجاعيــده الغائرة يعطى إحساس إنسان وضع قدمه على حافة القبر وجلس فى الانتظار!

ونظــر إلىّ توفيــق الحكيم بعينــين هزيلتين.. وبدأت أســأل نفسى: ماذا أقول له؟!

إننــى لا أذكر منــذ عرفته أنى دخلت عليــه مكتبه بالأهرام وجلســت أمامه دون أن أثير أمامه قضية يتحمس للحديث عنها والتفكير فيها. وأســتمتع أنا بالاســتماع إليه.. ولعل هذا ما كان يحببــه فــى زياراتى له.. ولكن هــذه المرة كان يبــدو فى حالة

• مختلفة.. ووجدت نفسى وقد تغلبت على أنانية الصحفى أقول له - وأنا أضغط على زرار جهاز التسجيل الذى كنت أحمله.

- توفيق بيه كلمنى عن الموت.. لقد فهمت أنك كنت قريبا منه. أو ربما عشته وأريد أن أسمع منك: هل كنت تتمنى فعلا أن تموت؟ هل حلمت أوتمنيت أن تموت ثم تعود إلى الدنيا لتفاجئ أصدقاءك ومعارفك وترى أثر عودتك عليهم؟.. هل الموت أجمل أم الذى تعرفه أفضل من الذى لا تعرفه؟

قال لى توفيق الحكيم: «لم يعد لى سوى الله.. وفى دعواتى السابقة إليه لم يحدث أن دعوته بشدة طالبا منه أن يأخذنى إلى جواره مثل هذه المرة، لأن مهمتى فى الحياة انتهت، تصور أى مسرح فى آخر الليل.. بعد أن يغادر الجمهور وينصرف ممثلوه وعماله. مسرح خال بدون جمهور.. ما الذى يبقى له سوى أن يمد عامل يده ويطفىء ما بقى فيه من أنوار!! أنا هذا المسرح.. وهذا الوقت بالذات هو الوقت المناسب الذى يجب أن ينطفىء فيه نوره!»

ويقول صلاح منتصر أيضا فى هذه الشهادة المهمة: لقد روى لى توفيق الحكيم كيف أن الأطباء أخبروه أنهم بالفعل هيأوا أنفسهم لموته، ولكن المعجزة الإلهية شاءت أن يعيش. وقلت له:

هل معنى ذلك أن إرادة الحياة تغلبت فيك؟. قال توفيق الحكيم منتفضا : إرادة حياة مين؟ إن الذى لدى هو إرادة الموت، لكن ربنا لم يرد.. وبدأت أسير فى طريق الشفاء.

وبدأت أسأل ليه يارب مديت فى أجلى. وهل هو أجل بسيط.. ربما كان قصيرا، وربما كان طويلا، ولكن المهم ليس الأجل. المهم هو المهمة أو العمل الذى يمكن أن أقوم به فى هذه الفترة التى أعيشها.

وعندما كان الأطباء يطمئنوننى على شفائى فقد كنت أسألهم بصدق : وما الفائدة من حياتى؟، وكانوا يقولون : علشان تمتعنا.. ليه.. هو أنا مطرب؟!.. يقولوا لى علشان تكتب لنا.. أكتب؟! هو أنا لسه حاكتب؟ أنا أريد شيئا له قيمة.. مهمة غير الكتابة لأنه ما فائدة الكتابة؟ الناس لو بتقرا كان يبقى فيه أمل.. لكن الناس النهاردة للأسف لا تريد القراءة.. إذا قرأت فهى تقرأ الصحافة والمقال الطازج.. وما عندى الآن ليسوى ذكريات قديمة.. وحياة قديمة.. والناس عاوزه الطازه.. عاوزه الجديد.. لكن أنا بقيت روبابيكيا!

ويضيف فى نفس الشهادة التاريخية عن أيام توفيق الحكيم الأخيرة : وعندما زرته لأول مرة بعد شهرين من مرضه وعزلته

وحده. بــلا أصدقاء، أو زوار، أو تليفونات تســأل عنه وتعطيه أهمية، كان أدق ما ينطبق عليه ما قاله هو نفسه فى أحد مقالاته القديمة: «إن الفنان أو الأديب لا يهدمه الذم أو النقد. بل إنهما يدعمان وجوده، إنما الذى يهدمه ويقتله هو الإهمال..».

وتتابعت زيارتى لتوفيق بيه.. وفى الوقت نفسه توافد الزائرون عليه.. أصدقــاء ورسميــون ووزراء، ومنهم وزيــر الثقافة فى ذلك الوقت المرحوم محمد عبد الحميد رضوان، إلى جانب زوار آخرين كانــوا فى زيارة أقرباء لهم فى المستشــفى وعرفوا من الأحاديث التى نشــرتها بوجوده فى المستشفى فوضعوا فى برنامجهم المرور عليــه. وبعضهم جــاءه ومعه باقات الــورود التى ملأت جنبات الجناح، الذى كان قبل أيام يشكو من الوحدة والذبول.

* * *

وبعد أن قضى العملاق توفيق الحكيم تســعة أشهر فى فراش المرض داخل مستشفى المقاولون العرب عاد من جديد إلى الحياة.. بعدمــا كان اليأس فى شــفائه قد ضــاع.. وبالتالى رجع ولو على اســتحياء لمارسة نشاطه الذهنى والفكرى برغم أن هذا الرجوع. كان فى قرارة نفسه.. نوبة صحيان مؤقتة.. يعاود بعدها الاستعداد للرحيل الأخير.

وقد ظن أن هذه النوبة قد لا تطول ربما لعدة ســاعات.. ولكن نظرا لإرادة الله.. والالتزام بقاعدة لكل أجل كتاب وساعة رحيل.. فقد ظل توفيق الحكيم يعيش على هامش الحياة.. قاعدا أو جالسا أو نائما أو متأملا لأكثر من ثلاث سنوات.. رحل بعدها عن عالمنا.

ولم تكــن تلــك الســنوات الثــلاث على خــلاف غيرها من السنوات العجاف صحيا والتى بدأت فى حياة الحكيم منذ أوائل الثمانينات.. بل بالعكس كانت صحته تشهد بين الحين والحين تدهورا مستمرا، إلا أن رعاية الأطباء له ومتابعتهم حالته الصحية يوما بيوم قد خففت عنه حدة آلام هذه الأيام.

وظل الحكيم كذلك علــى هذه الحالة ما بين الصعود والهبوط حتى شهر أبريل من عام ١٩٨٧..وهو عام الرحيل.. عندما أعلنت الصحف نقل توفيق الحكيم إلى القصر العينى بعد إصابته بغيبوبة!

وجــاء فــى التفاصيل.. إنه فى صباح يــوم ١٢ أبريل تم نقل الكاتب الكبير إلى مركز رعاية الحالات الحرجة بالقصر العينى، وهــو المركــز الوحيد من نوعه فى مصر إثــر أزمة صحية مفاجئة أصابته بغيبوبة منذ يومين!

وقال الدكتور شــريف مختــار أخصائى القلب والمشــرف على المركز إنه تم إجراء رســم قلــب وبعض التحاليل، وكان

التشــخيص المبدئى هو إصابة الكاتب الكبير بهبوط فى القلب وقصور فى الدورة الدموية.. صحب توفيق الحكيم ابنته زينب وزوجهــا إبراهيم عزت إلى المستشــفى. وبعد ٤ ســاعات من دخوله القصر العينى بدأ الحكيم يفيق تدريجيا من الغيبوبة.

ومنذ هذه الساعة بدأت الصحف والمجلات.. فى كل مكان تتابــع حالة الحكيــم.. وكان يرقد آنذاك فــى العنبر رقم (١) بالقصــر العينى.. والســيدة زينب الحكيم تــروى لنا هذه المرة قصة المرض الأخير فى حيــاة والدها.. وكيف تطور هذا المرض منــذ عام ١٩٨١.. فقالت: «كان بابــا طبيعيا ولم يكن هناك ما ينذر بالمرض.. وحالته النفســية طبيعيــة، وكان يمارس حياته أيضا بشــكل طبيعى ويدخل حجرته ليكتب مقاله للأهرام ،ولم تظهــر أية أعراض للمرض ســوى قبل دخوله المستشــفى بيوم واحد. عندما ارتفعت حرارته فجأة وامتنع عن الطعام، فاتصلنا فــورا بالدكتــور أحمد عبد العزيز إسماعيل الــذى أمر بنقله إلى المستشــفى.. وهناك اكتشــفوا أنها نفس الحالة التى حدثت له منذ ثلاثة أعــوام عندما نقلناه إلى مستشــفى المقاولون العرب.. فقد أصيب وقتها بالتهاب رئوى حاد.. فجأة أيضا ولم يكن له سابق إنذار».

ويكمــل هذه الشــهادة الطبيب شــريف مختار الــذى قال: «الحالــة كانت حرجة فهو مصــاب بهبوط فى القلب وقصور فى الدورة الدموية وفشل كلوى نسبى، هذا غير أنه فى حالة غيبوبة كاملة».

أما الدكتور أحمد عبد العزيز طبيب الحكيم الخاص منذ ثلاثين عاما فقــال عن نفس الحالة: «الحالة بدأت بنزلة شــعبية حادة أقرب إلى الالتهاب الرئوى ثم شــفى منها تماما منذ عشــرة أيام.. وكان قــد تناول جرعات كبيرة مــن المضادات الحيوية التى أدت إلى عزوفه عن الطعام والشــراب.. ممــا أدى إلى قصور فى الدورة الدمويــة، تماما مثل الحالة التى حدثت له فى عام ١٩٨٤ والتى أدت إلى نقله إلى مستشفى المقاولون العرب بالجبل الأخضر والتى ظل بها لمدة تسعة أشهر. وبالتحديد من إبريل عام١٩٨٤ إلى يناير عام ١٩٨٥.. ولدينا أمل فى شفائه هذه المرة أيضا!»

* * *

وكأنما صدقت دعوات طبيبه الخاص..وتنبوءاته بشفاء توفيق الحكيــم وعودته إلى منزله هذه المرة أيضا.. فبعد أكثر من شــهر قضــاه الحكيم فى القصر العينــى تحت الملاحظة والرعاية.. عاد يمــارس حياته مرة أخرى.. ولكنه لم يعد قادرا على كتابة مقاله

الأسبوعى بجريدة الأهرام..وقد توقف عن كتابته من قبل دخوله المستشفى هذه المرة. وكان آخر هذه المقالات ما نشر بالأهرام فى ١٣ أبريل عام ١٩٨٧بعنوان «الفكر السياسى».

ونحن نعتقد أن هذه المرة التى أصيب فيها الحكيم بالالتهاب الرئوى ودخل من بعدها القصر العينى.. كانت فى تصور الأطباء المرة الأخيرة التى من الممكن أن يرحل بعدها الحكيم إلى عالم الأبدية.. مع التسليم بشىء هام يتفق مع الإيمان بقدرة الله.. وهو بأن لكل أجل كتاب.. وأقول هنا أعتقد أن التصور الأخير للأطباء كان هو الأرجح؛ ذلك لأن الأيام نفسها قد أثبتت ذلك.. إذ لم يمر سوى شهرين حتى غادرنا الحكيم لآخر مرة.. عندما أعلن عن خبر وفاته فى ٢٧ من شهر يوليو عام ١٩٨٧.

وفى هذه المرة الأخيرة.. لم يسلم الحكيم نفسه من الإرهاق وتعب التنقل بين أروقة المستشفيات ودخول مراكز عنايتها، سواء الخاصة بالقلب أو بالتنفس!

ففى أوائل شهر يوليو وقبل رحيله بعشرين يوما نقل للمرة الأخيرة إلى مستشفى المقاولون العرب بعد ما قضى أكثر من شهر مريضا فى مستشفى السلام الدولى.

وجاء فى التقرير الطبى الأخير الذى أذاعته إدارة المستشفى أن الحكيم دخل إلى المستشفى مصابا بالتهاب رئوى، والتهاب

فــى عضلة القلب والغشــاء المحيط بها.. مــع ارتفاع فى درجة الحرارة، وكانت نسبة الوعى لديه قليلة.. إلا إنه بعد أيام بدأت حالته فى تحقيق بعض التحســن فانخفضت الحرارة إلى الدرجة العادية وتحسنت درجة الوعى قليلا.

وكان قد أشرف على العلاج فى الأيام الأخيرة من حياة توفيق الحكيم الدكاترة عبد المنعم حسب الله أستاذ أمراض الباطنة بطب القصر العينى والدكتور محمد ســيد الجندى أستاذ أمراض القلب والدكتور الحســن الغنيمى أستاذ أمراض الباطنة والدكتور يحيى طاهر أستاذ المخ والأعصاب.

وقال الدكتور محمد ســيد الجندى: إن حالــة توفيق الحكيم كانــت فى غيبوبة فى أغلب الوقــت ولذلك كان حديثه نادرا أو منعدمــا تقريبا. وقد أصيب فى آخر يومين بجلطة فى شــرايين الساق اليسرى، ساءت بســببها حالته الصحية.. فتقرر نقله إلى غرفة العناية المركزة وهو فى غيبوبة كاملة. واستمر بها حوالى ٢٤ ساعة قبل أن تفيض روحه فى تمام الساعة العاشرة من مساء يوم الأحد ٢٦ يوليو من عام ١٩٨٧.

ولقد شــهدت الأيام بل الســاعات الأخيرة مــن حياة توفيق الحكيم نوعا من الهدوء النفســى والجسدى معا حيث كان يرقد

فوق سـريره من دون أن يدرى بكل ما يدور حوله.. وكان محبوه ومرافقوه هم الذين يسجلون عليه هذه اللحظات.

وكما سـبق ومر علينا.. فقد عاش الحكيم لفترة امتدت لأكثر من ثلاث سـنوات فى غيبوبة الموت.. التـى كان يفيق منها من حـين إلى حين. وبالتالى كانت أيامـه الأخيرة تقتربى ببطء نحو النهاية!. وقد أبت عليه الحياة بهدوئها إلا أن يموت فوق سرير المرض فى الجناح (٤١١) بمستشـفى المقاولون العرب.. التى كان قد دخلها قبل رحيله بعشرين يوما فقط!

وبرغم تحسـن حالته المرضية نسـبيا إلا إنه ظل طوال الأيام التى سـبقت الرحيل فى شـبه غيبوبة الموت.. وكان قد أصيب قبـل لحظات الموت المؤكد بأزمة صحية نقل على إثرها إلى غرفة الإنعاش التى لفظ فيها أنفاسـه الأخيرة، فى حضور ابنته زينب التى شـهدت تلك اللحظات المرعبة وأيضـا فى حضور عدد من كبار الأطباء الذين أشرفوا على علاجه.

وقالـت زينب الحكيم عن تلك اللحظـات الأخيرة فى حياة والدهـا من قبل أن يسـلم روحه إلى الله: إنـه عندما عادت إلى منزلها بجاردن سيتى مسـاء الأحد، اتصلت بمستشفى المقاولون فأخبرها الأطباء إنها يمكنها العودة فورا للمستشـفى والمبيت مع

والدها، فشعرت أن هذه هى الليلة الأخيرة فى حياته وبالفعل ظلت بجواره هى وفريق الأطباء حتى فارق الحياة.

وقالت زينب أيضا إن آخر ما طلبه والدها قبل وفاته أن ينتقل من العناية المركزة إلى جناحه بالمستشفى ليموت بجوار صورته ولوحة يزينها لفظ الجلالة معلقتين على جدران جناحه.. وإنه عندما كان يفيق من غيبوبته يسألها عن أحوالها وأحوال أحفاده ثم يطلب ورقة وقلما يضع عليها بعض الخطوط ليثبت لمن حوله أن يده قادرة على الكتابة. كما أنه أوصاها بألا تتصرف فى أشيائه الخاصة!

* * *

وفى صباح يوم الإثنين ٢٧ يوليو خرجت كل الصحف والمجلات بنبأ وفاة عملاق الأدب والفكر توفيق الحكيم عن عمر يناهز الثامنة والثمانين.. وقد وافته المنية فى غرفة الإنعاش فى الساعة العاشرة من مساء الأحد.

وفى يوم الثلاثاء تم تشييع جنازة الحكيم فى جنازة عسكرية.. بدأت من مسجد عمر مكرم من قبل أن ينقل الجثمان إلى مدينة الإسكندرية مسقط رأسه لدفنه هناك تنفيذا لوصيته الأخيرة. كما تم إبلاغ الرئيس السابق مبارك فى مقر إقامته حيث كان آنذاك بأديس

أبابا.. وقد أصدر أوامره بأن تكون الجنازة عسكرية تكريما لعطاء الحكيم لمصر وللفكر العربى.

كمـا أصدرت رئاسـة الجمهورية بيانا نعت فيـه فقيد مصر والعـالم العربى.. وذكر البيـان: «إن مصر فقدت علما شـامخا وشـخصية فذة برحيل الأديب الكبير توفيـق الحكيم الذى ظل معـبرا عن نبض الشـعب المصرى لمدة تزيد عـن ٦٠ عاما أثرى خلالهـا الأدب العربى والعالمى وكان نموذجا للفكر الذى يتفاعل مع حياة العصر وينفعل بنبض الجماهير».

هـذا وكانـت أسـرة الحكيم قد سـبقت جثمانـه إلى مدينة الإسكندرية لتكون هناك فى استقباله وتقبل العزاء بدار المناسبات بحى المنارة قبل تشييع جثمان الكاتب الكبير إلى مقره الأخير.

* * *

(٥) بيرم التونسى
مات ليلة عيد الأقباط والمسلمين

عندما سألوا أمير شعراء الشعب، بيرم التونسى، عن قصة حياته.. لخصها فى ثلاثة سطور.. قال فيها:

الأوله: مصر، قالوا تونس ونفونى. الثانية: تونس، وفيها الأهل جحدونى! والثالثة: باريس، وفى باريس جهلونى!..

وبهذا الاختصار العجيب استطاع هذا الشاعر العظيم أن يقول كلمته ويقدم نفسه للناس وللتاريخ فى أعظم صورة جمعت بين العديد من المتناقضات، والمتعمق فى دراسة هذه السطور الثلاثة سوف يكتشف أيضا مأساة بيرم من خلال كلماتها، فهو مصرى المولد والمنشأ والكفاح والأشعار وأشياء أخرى كثيرة لم تشفع له من أجل البقاء فى مصر والعيش تحت شمسها، برغم حبه وولعه لها..

وهو أيضا تونسى الأصل.. من ناحية أجداده ووالده..

ومع ذلك لم يعتبره أهل تونس من أهلها!.. لذا رفضوا أن يقيم بينهم أثناء محنته التى قضاها منفيا لمدة عشرين عاما!

وفى ربوع باريس ومدن فرنسا التى وصلها مطرودا من مصر بسبب مواقفه الوطنية ضد الملك وضد الاحتلال البريطانى آنذاك، أهملوه.. وضاعت منه ملامح الأيام، وطوال العشرين عاما التى قضاها هناك ماتت أحاسيسه الخاصة وإن زادته قوة ووطنية.. وأصبح يحن لمصر من حين لآخر.. حتى عاد إليها هاربا من المنفى!!

إنها قصة كفاح شاعر وأديب تستحق أن نرويها كثيرا لما فيها من عظمة وصمود وإصرار على رفض الأخطاء مهما عظمت.. وتلك من سمات شاعرنا الكبير محمود بيرم الشهير بالتونسى، والتى أهلته لكى يكون من بين عظماء هذه الأوراق من أعلام الفكر والأدب.

إن عظمة بيرم شاعر الشعب وأمير شعرائه أنه بالفعل كان نموذجا للشخصية المصرية وابن البلد الذى عاش فى خضم المتناقضات الاجتماعية التى كانت سائدة فى مصر لسنوات طويلة مع مطلع هذا القرن. وقد استطاع من خلال كلماته النارية مقاومة المستعمر بطريقته الخاصة.. كما استخدم أشعاره من أجل الحرية.. مثلما فعل غيره من أدباء فرنسا من أمثال فولتير وجان جاك روسو وآخرين.

ومن مميزات بيرم الشاعر الفنان على حد قول النقاد.. إنه لم يكن يتعامل مع الفن أو مع الأدب معاملة ناعمة.. وإن اختلف منهجه هذا فيما بعد، حين أخذ يكتب لأكبر المطربين والمطربات من أمثال أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب.. والسبب فى ذلك كان يرجع إلى شعوره الدائم بالثورة على التقاليد الاجتماعية التى خربت نفوس الناس.

ليس هذا فقط.. بل كان أكثر ثورية فيما كان يكتبه فى المجال السياسى، حيث كان مدويا فى كل مكان لإيقاظ الذين ناموا طويلا بعد إخفاق الثورة العرابية. وقد عبرت الصحف التى أنشأها آنذاك فى فترة كفاحه الوطنى عن هذه الثورية النادرة، حتى من عناوينها إضافة إلى ما كان بها من مضمون.. فنراه يسمى "المسلة".. مثلا "الخازوق"!

وعندما مات.. أرثاه عباس محمود العقاد بكلمات قال فيها:
"لقد رحل العبقرى الذى فقده العالم العربى.. حيث كانت من أهم آيات هذا الشاعر العظيم أنه كان يفهم السريرة الناطقة بالعربية من بواطنها الخفية قبل أن يحكيها بلهجاتها الكثيرة على الألسنة أو على الأقلام.."

ونستطيع أن نؤكد وفق ما سوف تفصح عنه الأحداث القادمة.. أن بيرم التونسى كان شاعرا وطنيا جمع بين العروبة والعذوبة

والكلمات الرقيقة وأيضا بين الهموم والصعوبات والمشاكل التى ارتبطت بحياته خاصة منذ نشأته الأولى ومن بعد رحيل والده.. وظلت هذه المشاكل تلاحقه دوما سواء داخل مصر أو خارجها.. وكانت من أخطر نتائجها ما قاساه من آلام الغربة وآلام الأمراض التى كان فى مقدمتها مرض الربو الذى قضى عليه فى أخريات أيامه.. بعدما أصابه فى منفاه.. ثم اشتد عليه بعد عودته!

* * *

ومحمود بيرم التونسى من مواليد ٤ مارس عام ١٨٩٣ بحى الأنفوشى بالإسكندرية ولقب بالتونسى نسبة إلى جده الشيخ مصطفى بيرم الذى جاء من تونس وأقام بالإسكندرية وتزوج وأنجب ثلاثة أبناء كان أحدهم الحاج محمود مصطفى بيرم والد شاعرنا العظيم، وكان يعمل فى صناعة وتجارة النسيج، وعندما أصبح عمر بيرم أربع سنوات ألحقه والده بكتاب الشيخ جاد الله فى حى السيالة، ثم ألحقه بالمعهد الدينى الذى كان مقره فى مسجد سيدى أبو العباس المرسى، وفى سن الرابعة عشرة مات والده، فانقطع عن المعهد وبدأ يزاول العمل فى التجارة لكنه فشل واضطر للعمل فى البقالة فى سبيل لقمة العيش، وبعد عامين توفيت والدته فأحس أكثر بالحرمان.

هذا ما سجله التاريخ عن حياة بيرم ونقله النقاد والمؤرخون.. أما بيرم نفسه فله حديث آخر عن نشأته وميلاده.. وقد سجل كلماته هذه في مذكراته التي كتبها على حد قول المؤرخ كمال سعد في مدينة حلوان في يناير من عام ١٩٦١ أى قبل أيام من رحيله..

ومما ذكره بيرم التونسي في هذه المذكرات: أنه ولد في حي الأنفوشي بشارع البوريني بالسيالة، ولكن قيده ضمن مواليد حي الأزاريطة في جهة الرمل.. كما أنه من مواليد ٢٣ مارس عام ١٨٩٣ بخلاف ماذكره المؤرخون. وأضاف «وأدخلني والدى مكتبا لتعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم في الحي نفسه، وقضيت به فترة من الزمن تعلمت فيها وحفظت بعض سور القرآن، ثم نقلت لطلب العلم في مسجد المرسى أبى العباس والبوصيرى، وهناك أقبلت في نهم وشغف على ما كان يلقى عليّ من دروس.

ولظروف خاصة تركت العلم إلى غير رجعة.. فودعت المعهد الديني ثم اشتغلت بقالا في الحي، ومالبثت أن ازددت ثقافة من كثرة ماكنت أقرأ من الكتب القديمة التي كنا نجلبها ونبيع فيها للمشترين».

وحين كان يسأل بيرم عن جنسيته يقول: إنه مصرى ١٠٠٪ ولكن جدى لأبى كان تونسيا ونزح إلى مصر فى عام ١٨٣٣ فى عهد محمد على الكبير.. وأمى مصرية ١٠٠٪ واسمها نجية عبد الخالق أبوشال.. وأسرة والدتى كانت تملك رمل الاسكندرية ابتداء من قهوة "اتينيوس" بميدان سعد زغلول إلى محطة فكتوريا طولا وعرضا.. أما الوالد فكان يمتلك مصنعا للنسيج استولى عليه أبناء العم بعد وفاته فى عام ١٩٠٦.

ولو نظرنا بعين المدقق لبداية المأساة فى حياة بيرم على الأقل من الناحية الاجتماعية سوف نكتشف أنها قد بدأت فعلا مع رحيل والده فى عام ١٩٠٦ وبعد استيلاء أبناء عمه على مصنع النسيج.. ولا نستطيع أن نقول إن تلك المأساة كانت أحد الأسباب المباشرة فى نمو الوعى الأدبى المبكر لدى بيرم.. وهو نفسه يؤكد ذلك.. وإنما ربما لعبت هذه الظروف أحد الدوافع القوية لاشتعال الموهبة داخل نفس بيرم دون أن يدرى.

وكانت من أهم الظروف الاجتماعية الصعبة التى عاشها بيرم فى فترة حياته المبكرة اكتشاف أمه زواج أبوه من راقصة؛ عن طريق المصادفة وأنه كان يقيم معها حيث أسكنها فى منطقة بعيدة عنهم هى "الأزاريطة" التى كانت فى ذلك الوقت من ضواحى الإسكندرية غير المعمورة!

بل أكثر من ذلك تلك الإشاعة التى راجت آنذاك فى الحى كله بموت والده عن طريق السم البطئ على يد هذه الراقصة طمعا فى أمواله التى كان يربطها فى حزام على وسطه ! ! ، وكان لموت والد بيرم أشبه بكارثة عليه وعلى والدته وأسرته.. حيث لم يترك لهم أموالا يعيشون منها بعد رحيله.. وحتى المصنع الذى ورثه عنه استولى عليه أبناء عمه بلا مقابل! !

ولم ينقذ بيرم من هذه المشاكل الاجتماعية التى بدأ يواجهها وهو فى سن الثانية عشر من عمره سوى القراءة والاطلاع.. وأيضا تأليف الأشعار وكان فى هذه الفترة قد بدأ يعمل بقالا.. كما كانت الكتب التى يستخدم أوراقها فى لف البضاعة هى المصباح السحرى الذى نقله إلى عالم الأدب وهو عالم غير العالم الذى كان يعيش فيه آنذاك!

وازدادت حياة بيرم تعقيدا فى الفترة نفسها إذ تزوجت أمه من قريب لها.. فأخذه الزوج الجديد ليساعده فى صناعة "هوادج الجمال".. وكان عمل بيرم الجديد شاقا للغاية.. وكان دائما يقول لأصدقائه : "كنت أشيل أثقالا على ظهرى، ولهذا ربت لى هذه الصنعة أكتافا وعضلات فيما بعد فى حياة الشقاء التى عشتها فى فرنسا فى المنفى".

ولم ينقذ بيرم من هذا العمل الشاق سوى موت أمه فى عام ١٩١٠ ويحاول بيرم للمرة الثانية أن يهرب من همومه الخاصة ومشاكله الاجتماعيه فيتزوج من ابنة تاجر عطارة.. بعدما انخرط فى تجارة البقالة والسمن.. ولكن موهبته ظلت تؤرقه كثيرا حتى ملكت عليه نفسه وحياته.. فكتب أول قصيدة عن مظالم المجلس البلدى قال فى بعض أبياتها:

قد أوقع القلب فى الأشجان والكمد
هوى حبيب يسمى المجلس البلدى
ما شرد النوم عن جفنى القريح سوى
طيف الخيال، خيال المجلس البلدى

ومما يقال فى سياق هذا الزجل إن السبب الرئيسى وراء تأليف الشاعر بيرم التونسى لهذه الكلمات إنه وبعد أن قرر الزواج والعيش فى هدوء بعد رحيل أمه.. باع البيت الكبير الذى ورثه عن والده.. واستخدم جزءا كبيرا من ثمنِه فى تجارة التجزئة واشترى بالباقى بيتا صغيرا.. إلا إنه فوجئ ذات يوم بالمجلس البلدى بالإسكندرية والذى كان يسيطر عليه الإنجليز يحجز على منزله الجديد ويطالبه بمبلغ كبير كعوائد عن سنوات لا يعلم عنها شيئا!

ويذهب بيرم الفنان والشاعر العظيم بأول إنتاجه عن المجلس البلدى إلى جريدة الأهالى طالبا نشرها، وبالفعل وافق صاحب الجريدة آنذاك عبد القادر حمزة بنشر قصيدة المجلس البلدى فى الصفحة الأولى وكانت بذلك أول عمل أدبى ينشر لبيرم فى الفترة نفسها. بل أكثر من ذلك وكما قال بيرم «لم أكتف بنشرها فى الصحيفة، بل أصدرت كتيبا يتضمنها بعته بـ ٥ مليمات للنسخة الواحدة، فراج الكتاب رواجا عظيما، وطبعت منه مائة ألف نسخة، وهكذا وجهنى القدر إلى مهنة الأدب كوسيلة للرزق، ثم بدأت بعد ذلك فى إصدار كتيبات أخرى صغيرة بها قصائد أنتقد فيها مختلف العادات الاجتماعية..».

ويؤكد الناقد كمال سعد إن الشاب بيرم قد بدأ بعد نجاح هذه القصيدة يشعر وكأنه أصبح شيئا مهما فى عالم الأدب فترك التجارة واهتم بتأليف الشعر، إلا إنه أدرك بعد فترة أن الشعر وسيلة محدودة الانتشار بين شعب ٩٥٪ من أبنائه لا يقرأون، فاتجه إلى الزجل ليقرب أفكاره إلى أذهان الغالبية العظمى من المصريين.

ومن حسن حظ تاريخ الفن والأدب العربى أن التقى بيرم التونسى فى فترة ظهوره الأولى بفنان الشعب الموسيقار سيد

درويش ابن بلده الذى جاء هو الآخر من الإسكندرية.. وكان لسيد درويش -كما يعترف بذلك بيرم نفسه- الفضل فى تشجيعه على تأليف أول أغنية حماسية.. وفى تأليف المسرحيات الغنائية التى كانت تعرف آنذاك باسم "الأوبريتات".. ويذكر المؤرخون أن التعاون بين شاعر الشعب وموسيقار الشعب قد أثمر عن إنتاج أكثر من مسرحية غنائية من أشهرها شهرزاد والتى ردد فيها قوله المشهور:

أنا المصرى كريم العنصرين
بنيت المجد بين الأهرامين
جدودى أنشأوا العلم العجيب
ومجرى النيل فى الوادى الخصيب

* * *

ورويدا رويدا.. بدأ الشاعر العظيم بيرم التونسى يزحف ناحية النجومية التى ارتبطت فى الواقع بإحساسه بهموم وطنه مصر اجتماعيا وسياسيا حيث حركت فيه أحداث ثورة ١٩١٩ أحاسيس أخرى.. وجعلته يزحف بكل كيانه ناحية مواطن الخطر متمثلة آنذاك فى مهاجمته الملك فؤاد.. فخرجت أشعاره النارية مؤيده لثورة ١٩١٩ ومهاجمة بعنف الملك وأعوانه.

وقد اتضحت ثورية بيرم بعد ٨ مارس من العام نفسه حين تم اعتقال سعد زغلول ورفاقه ونفيهم جميعا إلى جزيرة مالطة. فأخذ يساهم فى المظاهرات التى انطلقت أولا فى الإسكندرية ويهتف بأشعاره للحرية و الاستقلال.

ويروى بيرم التونسى نفسه ذكرياته عن هذه الأيام بقوله: «اشتركت فى الثورة على طريقتى الخاصة، لم أقذف بالحجارة، ولم أحطم مصابيح النور، وإنما نظمت مقطوعات زجلية مناسبة للمقام، اشتركت بها فى المظاهرات، فكانت أشد وأقوى من الحجارة.. بل ومن القنابل أيضا..»

ولم يكتف بيرم الملتهب بالحماس و الوطنية بذلك فقط.. بل زحف إلى القاهرة لكى يعيش فى قلب الأحداث.. وهذه المرة أخذ يبحث عن وسيلة جديدة يساهم بها فى الثورة.. ولم يكن أمامه آنذاك سوى إصدار الصحف!!

ففى يوم ٤ مايو عام ١٩١٩ يصدر صحيفته الأولى التى صدرت بعنوان "المسلة" وينزل إلى الشوارع ليوزعها بنفسه!، وكان أول صدورها فى مدينة الإسكندرية، وعلى إثر نجاح هذه المجلة.. قرر بيرم الاستقرار نهائيا فى مدينة القاهرة ليكون بالفعل فى قلب الأحداث السياسية.. وفيما أصدر العدد الثانى من مجلة

المسلة.. وجاء فيها هجومه الشديد على مفتى الديار المصرية آنذاك لمعارضته سفر سعد زغلول واختلافه مع وجهات النظر الوطنية!

ويقترب بيرم التونسى أكثر من ذى قبل من الاصطدام مع الواقع فى شخص الملك فؤاد.. هذا الاصطدام الذى أسفر عن إبعاده عن مصر لمدة عشرين عاما!. ففى العدد الثالث عشر من مجلة المسلة نشر بيرم العديد من أزجاله اللاذعة والتى انتقد فيها سلطات البلاد.. وكان من أخطرها قصيدته التى نشرت بعنوان «البامية ملوكى.. والقرع سلطانى»!!.. والتى اتهمت صراحة الملك فؤاد أن وريث العرش الجديد ابنه الصغير قد ولد بعد أربعة أشهر من زواج الملك من الملكة نازلى!!

وكانت بداية هذا التصادم أن أمر الملك بنفسه بإغلاق صحيفة المسلة.. وتغلق الصحيفة. ولا ييأس بيرم، فيصدر مكانها صحيفة أخرى اسمها "الخازوق"! ويفتتح العدد الأول والأخير منها. بمقال عنيف يهاجم فيه المحافظ "محمود خيرى باشا".. زوج الأميرة فوقية ابنة السلطان فؤاد من زوجته الأولى شويكار تحت عنوان "لعنة الله على المحافظ".

عندئذ لم يجد الملك فؤاد من وسيلة لإسكات هذا الصوت الذى أرعبه كثيرا سوى الاتصال بالإنجليز، حتى يتوسطوا لدى القنصلية الفرنسية لهذا الرجاء، وتوافق على ترحيل بيرم إلى وطن أهله تونس، حيث إنه لم يكن يحمل الجنسية المصرية!!.. وكان ذلك يوم ٢٥ أغسطس من عام ١٩٢٠!!

***

ونستطيع أن نؤكد من قبل استعراضنا لتفصيل هذا النفى الذى طال حياة الأديب والشاعر العظيم بيرم التونسى وهو لم يبلغ بعد السابعة والعشرين من عمره.. أن أيامه الأخيرة قد بدأت الزحف بقوة ناحية دائرة الضوء التى لا نستطيع تحديد النقطة التى ستصل إليها الأحداث إلا فى حينها.. برغم أن بيرم فى هذا التوقيت بالذات كان يعيش فى فترة فتوة الشباب.. ولم يتأثر كثيرا بالصعاب الاجتماعية التى مر بها آنذاك والتى كان من أقساها على نفسه رحيل زوجته التى قضى معها ست سنوات وأم أولاده محمد ونعيمة..

كما لم تغنه هذه الصعاب أو تخفف عنه وطأة الآلام النفسية إقدامه على الزواج من سيدة أخرى.. بعد ١٧ يوما فقط من رحيل الزوجة الأولى.. ذلك لأن امرأته الجديدة لم تطق طفليه الصغيرين

فاضطر إلى إرسالهما إلى حماته بالإسكندرية لتربية الطفلين، ولولا انخراطه فى أحداث ثورة ١٩١٩ آنذاك لظلت آلامه النفسية تطارده وتعكر عليه صفو حياته وأشعاره وأمجاده!

كما نستطيع أن نؤكد فى هذا السياق أن بيرم التونسى.. يعتبر من أوائل الأدباء الذين ذاقوا مرارة الرحيل قبل أوانه الأخير.. وذلك على إثر قرار نفيه خارج مصر والذى استمر لمدة عشرين عاما. وإن كان قد لحقه فى ذلك أمير الشعراء أحمد شوقى.. حين تم نفيه على يد السلطان حسين كامل إلى أسبانيا لمده ٥ سنوات. ولكن الفرق بطبيعة الحال سيكون كبيرا.. ومؤشر الميزان سيميل بقوة ناحية أمير الشعراء.. والأحداث التى صاحبت رحيل هذين العظيمين أكدت ذلك وأكثر.

من هنا نرى أن بيرم التونسى مثله مثل العظماء من رجال السياسة الذين مرت علينا بعض أحداث أيامهم الأخيرة.. والذين ذاقوا مرارا هذا الرحيل من مصدرين: الأول النفى مثل الخديوى إسماعيل و أحمد عرابى و سعد زغلول و الملك فاروق.. والثانى الموت.

ولولا المشاكل الصحية الخطيرة التى أسفرت عن نفى بيرم التونسى خارج مصر طوال عشرين عاما. والتى كانت المقدمة

الحقيقية لرحيله إلى الأبدية.. لما كنا قد توقفنا عند تفاصيل هذا الرحيل أو هذا النفى.. برغم أنه عاش بيننا لأكثر من عشرين عاما أخرى بعد عودته إلى مصر من منفاه.. ولكنها كانت بالفعل كلها آخر أيام فى حياة بيرم.. سرعان ما أخذت تجره بقوة ناحية الرحيل الأخير الذى حدث فى عام ١٩٦١!.

وتقول تفاصيل رحلة النفى فى حياة بيرم كما سجلتها العديد من المصادر.. إنه فى يوم ٢٥ أغسطس من عام ١٩٢٠، أى فى اليوم الذى كان فيه المسلمون يحتفلون بعيد الأضحى المبارك، وكانت مصر آنذاك تعيش فى وزارة محمد توفيق نسيم التى بغضها الشعب لاتهامه إياها بأنها وزارة عميلة جاء بها القصر بدون برنامج استخفافا بالحركة الوطنية وبعد استقالة وزارة يوسف وهبى باشا.

كما صدر أمر نفى بيرم فى الوقت الذى كان فيه سعد زغلول ما زال غائبا فى سويسرا من أجل العلاج والاستشفاء.. وبعد صدور الأمر الملكى توجه كل من الضابط أحمد عبد الرحمن والأميرالاى ماركو بك والضابط الإنجليزى فتز باتريك وكذلك حكمدار العاصمة رسل باشا إلى مقر صحيفة بيرم لإغلاقها وإلقاء القبض عليه.

ويحاول بيرم إقناع البوليس -قبل ترحيله- بضرورة أن يمر على زوجته وأولاده بالإسكندرية، لكنهم لم يسمحوا له بذلك لأن الأوامر الصادرة إليه تؤكد ضرورة مغادرته مصر في الحال!.
فاستسلم لهم، عندئذ صحبوه معهم إلى محافظة القاهرة بباب الخلق ومنها إلى محافظة الإسكندرية وفي الليلة نفسها تقذف به السلطات على ظهر الباخرة "شيلي" إلى تونس.

وفي ميناء تونس تلقى الباخرة بيرم على رصيفها ولم يكن يعرف آنذاك من تفاصيل عن أصول أسرته وأجداده سوى ما حكته له أمه عن جده الكبير قبيل وفاتها.

وبعد كفاح مرير وسؤال هنا وهناك، استدل بيرم على أعمامه في تونس وقد ظن أن الأمور سوف تتحسن كثيرا وربما يعيش وسطهم آمنا.. لكنه يفاجئ بتلك المعاملة السيئة التي لاقاها من هؤلاء بسبب جدته الجارية التي تزوجها جده بعدما أهداها إليه السلطان التركي! مما اضطره إلى الابتعاد عن أقاربه.. والبحث عن عمل يعينه على الحصول على قوت يومه في تلك البلدة التي نبذه فيها أهل أبيه!

وبعد أن قضى بيرم في تونس ٤ أشهر من العذاب الأليم والوحدة والمعاملة القاسية سواء من الإدارة التونسية باعتباره

مشاغبا، وباعث ثورات أو من أهله الذين جحدوه، اضطر إلى السفر إلى ميناء مارسيليا بفرنسا.. ولكن لقسوة الغربة وسوء الأحوال الجوية والبرودة الشديدة التى لم يتحملها بيرم، انتقل بعد ثلاثة أيام من مرسيليا إلى باريس، وقد دفعه إحساس الغربة بأن يسجل انطباعاته على شكل زجل قال فى بعض أبياته:

الفجر نايم وأهلك ياباريس صاحيين
معمرين الطريق داخلين على خارجين
ومنورين الظلام راكبين على ماشيين

ويفشل بيرم فى الحصول على عمل فى باريس فينصحه بعض المغتربين على حد قول كمال سعد بالسفر إلى مدينة ليون.. وقد حكى بيرم له عن ذكرياته فى هذه المدينة حين قال: «وصلت لهذه المدينة فى عز الشتاء، ولأن جيوبى كانت شبه خاوية فقد أخذت المسألة من أقصر طرقها، وذهبت إلى أفقر أحيائها، واستأجرت فوق سطوح أحد المنازل شيئا يسمونه حجرة كانت من الخشب الذى حولته مياه الأمطار إلى مكان له رائحة من نوع خاص، إنها رائحة قريبة من العفن، وداخل تلك الثلاجة كنت أنام الليالى القاسية البرودة، وفى النهار كنت أسعى مع الفجر لأجد فى البحث عن عمل قبل أن يتبخر أخر مليم فى جيبى».

وأضاف بيرم يحكى لمحدثه عن بقية مأساته فى مدينة ليون: لقد التحقت للعمل بمصنع الحديد والصلب وتركته بعد أن سقطت على فخذى قطعة حديد كبيرة!

وفى عام ١٩٣٢ كانت فرنسا تمر بأزمة اقتصادية حادة ضاعفت من أعداد البطالة واضطرت إلى ترحيل كثير من المغتربين إلى البلاد التابعة لنفوذها وكان من نصيب بيرم أن أعادوه إلى تونس حيث بدأ هناك يكتب فى بعض الصحف مشاركا فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لبلاده مما اضطر السلطات التونسية والفرنسية إلى ترحيله إلى الشام!

وفى دمشق على حد قول المؤرخ الفنى حسن إمام عمر اضطر المعتمد الفرنسى إزاء كتابات بيرم الثورية أن يعيده مرة أخرى إلى باريس، وأثناء توقف السفينة اللبنانية التى كان يركبها فى بورسعيد للتزود بالوقود استطاع بيرم أن يتسلل إلى مصر مرة أخرى فى صيف عام ١٩٣٨ بعد غربة دامت عشرين عاما!

وبدون الدخول فى تفاصيل أخرى حول تأثير هذا النفى اللعين على حياة بيرم باعتباره كان المقدمة الحقيقية لرحيله عن عالمنا فى عام ١٩٦١.. نسوق هذه العبارة التى يستطيع القارئ من خلالها معرفة مدى تأثير هذا النفى على بيرم صحيا ونفسيا!

«ولم ينقذ بيرم من الموت جوعا فى باريس حين عاد إليها للمرة الثانية سوى عثوره على وظيفة فى شركة المنتجات الكيماوية العالمية، فهو يتمتع بقوة جسمانية، والوظيفة تحتاج إلى طراز معين من الناس لديهم قدرة تحمل الغازات الكيماوية الخانقة والمعادن القذرة ويمنحونه فى مقابل تلك الوظيفة ٢٠ فرنكا فى اليوم، وهو مبلغ لايكفى قوته الضرورى إلا بالعافية!

وتأكل الوظيفة الجديدة جانبا كبيرا من عافيته، وتجعله يبدو فى حياته إنسانا كئيبا.. حزينا.. لا تعرف الابتسامة طريقها إلى وجهه، وبرغم ذلك فقد كان يعود من عمله فى المناجم الذى يستغرق ساعات ليبدأ فى عمل أدبى جديد»[١]

لقد كان آنذاك يراسل مجلة هزلية فى القاهرة اسمها "الشباب" اتفق مع صاحبها على عبد العزيز الصدر أن يراسله فى مقابل أن يسلم لزوجته ثمن الأزجال حتى تستطيع بهذه النقود القليلة أن توفر أجرة المسكن والطعام!

ويعيش بيرم التونسى مرة أخرى فى مدينة القاهرة تحت مظلة الحرية التى نعم بها على إثر قرار العفو الذى حصل عليه

---

(١) بيرم التونسى –عاصفة من الحارة المصرية– كمال سعد.

له محبوه من الملك فاروق آنذاك. وقد توسط لدى الملك من أجل تحقيق هذا الغرض كل من الشيخ زكريا أحمد والفنان القدير سليمان نجيب الذى كان على علاقة طيبة بأحمد حسنين باشا الأمين الأول للملك فاروق ورئيس الديوان الملكى.

كما شارك فى هذه الجهود الشاعر الراحل كامل الشناوى.. ومن أجل حصول بيرم على العفو مكتوبا.. بادر بنفسه وألف قصيدة زجلية يرد فيها اعتبار الملك فاروق وأسرته.

ويبدو أنه كان وراء إقناع بيرم بهذا العمل ثلاثة من رجال السياسة الذين أحبوه وهم محمد محمود باشا رئيس الوزراء آنذاك ومحمود فهمى النقراشى وزير الداخلية وأحمد حسنين رئيس الديوان.

ويؤكد العديد من المؤرخين والنقاد أن بيرم بعد عودته لمصر فى عام ١٩٣٨ بدأ يزاول نشاطه الفنى والأدبى بعدما ابتعد عن السياسة.. فأخذ يكتب فى الصحف ويؤلف الأغانى والتمثيليات الإذاعية والمسرح الغنائى.. كما كتب أيضا للسينما، وبعد قيام ثورة يوليو حصل على الجنسية المصرية فى عام ١٩٥٤ ثم أصبح عضوا بنقابة الصحفيين، وفى عام ١٩٦٠ نال تقدير الدولة ومنح وسام الفنون.

وخلال السنوات العشرين التى قضاها بيرم حتى وفاته فى عام ١٩٦١ ظل قابعا فى بيته يعانى من آلام المرض الذى أصابه فى غربته خاصة مرض الربو اللعين.. وإن كان فى الفترة نفسها قد شغل نفسه بتأليف الأعمال الفنية المتطورة فى مجال المسرح والسينما والإذاعة.

كما عمل فى نفس الفترة فى عدة صحف ومجلات من أخصها مجلات الهلال وروزاليوسف وصحف أخبار اليوم والأهرام التى كان ينشر فى صدر صفحاتها الأولى أزجاله.. أضف إلى ذلك تأليفه الأغانى لأشهر الملحنين والمطربين من أمثال محمد عبد الوهاب وزكريا أحمد وأم كلثوم وفريد الأطرش وآخرين. وقد أبدع لسيدة الغناء العربى أعظم كلمات تغنت بها.. مثل أغنيات آه من لقاك فى أول يوم، وأهل الهوى، وشمس الأصيل.. وعشرات غيرها مما تشدو به أم كلثوم ونسمعه دوما فى كل مكان.

أضف إلى ذلك ما عاناه بيرم من أمراض الشيخوخة التى وجدت أمامها طريقا سهلا من أجل الهجوم المبكر عليه.. نظرا لحالات الضعف التى عاش خلالها على إثر معاناته الطويلة من أمراض أصابته فى الغربة.

ويؤكد أصدقاء بيرم التونسى أن آلام مرض الربو قد بدأت تشتد عليه بقوة منذ عام ١٩٥٤ نتيجة لكثرة سهره وإسرافه فى التدخين، ويبدو أن هذا التاريخ كان البداية الحقيقية للزحف نحو حافة الرحيل الثانى الذى انتهى به إلى حفرة الموت يوم ١٥ يناير من عام ١٩٦١.

ويقول شهود عيان الأيام الأخيرة فى حياة بيرم إنه ظل يعيش مريضا فى المنزل رقم (٢) بحارة النناوى بشارع السد البرانى بحى السيدة زينب.. بعدما رد زوجته إلى عصمته وكان قد انفصل عنها فى المنفى.. وطلقها وهو يعيش فى فرنسا عن طريق المراسلة.. ولما توفى زوجها الإسكندرانى أعادها اليه وعاش معها بحى السيدة زينب حيث أنجب منها ولدين هما محى الدين وأيمن.

ويقول كمال سعد أحد أصدقاء بيرم.. ومن الذين عاصروا أيامه الأخيرة.. "وقبل وفاة بيرم بعام واحد، كان موعدى معه فى مقهى بالسيدة زينب، وفى هذا اللقاء جلست لأستمع إليه عن قرب، وليكلمنى عن حياته وأيام شبابه التى ضاعت بلا ثمن فى المنفى مابين ليون وباريس وتونس ودمشق وبيروت وسوريا.

كان يحدثنى بمرارة عن الناس الذين اتصل بهم فى أزماته وأساءوا إليه، وعن الحاقدين اللذين كانوا يتطوعون بالإبلاغ عنه للتخلص من

موهبته بأسهل الطرق، وقال لى إن مثل تلك الأمور وغيرها جعلته يؤمن بالمثل القائل: البعد عن الناس غنيمة.. ولهذا انطوى على نفسه وأصبح لا يتصل بالناس إلا فى القليل النادر! وأضاف شاهد العيان: "وكان حديث بيرم معى فى هذا الوقت لا يقطعه سوى صوت سعال الربو وهو يقتصر قلب الفنان، ووجدت نفسى فى أكثر من مرة أقول له: سلامتك، ألف سلامه، وكان يرد على بسرعة وهو يضرب بيده على صدره: أبدا.. أنا صحتى بومب.. زى ما أنت شايف.

وتركت بيرم بعد حديث طويل بيننا فى تلك الليله، وكان هذا هو آخر لقاء لى معى فقد مرت الأيام وسكت النغم إلى الأبد وعاشت الكلمات الحلوة والمرة أيضا، والتى حملها إلى الناس فى صور حية تتحرك أمامنا، عاشت النغمة الخالدة التى كان من النادر أن يجود علينا الدهر بمثلها.

وأذهب يوم وفاته حيث دخلت غرفته فى الصباح وزوجته "إحسان" كعادتها فوجدته فى حالة يرثى لها، كان صوت السعال لا ينقطع من فمه والكلام لا يخرج من تحت لسانه إلا ثقيلا ووجهه أصفر باهتا لا حياة فيه.

فأصيبت زوجته بحالة من الجزع والحزن لم تحتملها. فأرسلت فى طلب ابنته عايدة التى جاءت مع زوجها التاجر

محمد محفوظ. وتدخل فى الوقت نفسه إحدى الجارات فى حارة السد البرانى لتقول لزوجة بيرم: البركة فيكى وفى الأولاد.. دى حالة موت!

وتصيب الصدمة كيان الأسرة وتفجعها، فترسل الزوجة فى طلب ابنته الأخرى نعيمة، كما ترسل تلغرافا آخر إلى ابنه محمد فى الإسكندرية.. ويصل الجميع ليموت بيرم على أيديهم فى الساعة الواحدة ظهرا يوم ٥ يناير من عام ١٩٦١ بعدما طلب كوبا من الماء، وكأنما كان يريد به أن يودع ماء النيل الذى طالما اشتاق إليه فى غربته وتصادف أن يكون هذا التوقيت ليلة عيد ميلاد الأقباط وعيد الفطر للمسلمين.

وفى صباح اليوم التالى.. يوم الفجيعة. سرت وراء الجثمان مع مجموعة من الناس ليس بينهم من الفنانين سوى بديع خيرى وأحمد رامى وزكريا أحمد ومحمود الشريف ورياض السنباطى ومحمد القصبجى وأحمد صدقى.

ووصل النعش إلى مقابر باب الوزير، حيث دفن هناك فى مدفن البكباشى محمد عارف.. وهو جد سعيد راتب زوج ابنة بيرم.. وكان آنذاك مدرسا بالمدرسة الحربية.

ويقول الأديب الصحفى محمد كامل البنا فى شهادته عن الأيام الأخيرة فى حياة شاعر الشعب بيرم التونسى:

مع بدايات عام ١٩٦٠ نشب خلاف بين الصديقين الملحن زكريا أحمد وبيرم التونسى أدى إلى قطيعة فترة من الزمن حتى توسط أصدقاء الطرفين وعملوا على إنهاء الخلاف بينهما خاصة بعد أن حكم القضاء لصالح زكريا أحمد وكان لى دور فى التقاء الأخوين المتجابين وإعادة المياه إلى مجاريها.

وماهى إلا أيام حتى سرى فى الوسط الفنى أن بيرم ألف أغنية جديدة لأم كلثوم بعنوان "أهو دا اللى جرى" وقدمها لزكريا أحمد ليلحنها.. ثم عرف أن زكريا وضع لها لحنا آية فى الروعة والإبداع، واتصل بى بيرم وحدثنى حديث الأغنية وأسمعنى كلماتها ومقاطعها، وقال لى إنه سوف يقدمها لزكريا غدا.

وكان ذلك قبل أن تغنيها أم كلثوم بأكثر من ٦ أشهر حيث أعلن عن موعد إذاعتها فى أواخر عام ١٩٦٠، ونشرتها إحدى الصحف اليومية قبيل موعد غنائها بيوم واحد.

وإذا ببيرم يتصل بى تلغرافيا فى الساعة الحادية عشرة مساء على غير عادته ويقول لى وفى صوته رنة حزن وأسى.. أنا فى غاية الأسى والحسرة لأن مندوب هذه الصحيفة قد أيقظنى من

منامى وأخرجنى من تحت الغطاء والربو يسرى فى صدرى ويكاد يودى بى وعرضنى للبرد القارس ليقول لى إن شابا من بورسعيد أرسل اليهم رسالة يقول فيها إن أغنية "أهو دا اللى جرى" من تأليفه وأنه أرسلها إلىّ منذ شهرين فانتحلتها لنفسى وأعطيتها لأم كلثوم على أنها من تأليفى، وأفهمت المحرر وغضبت وتألمت وذكرت له إنى أطلعتك عليها منذ زمن طويل.. لقد كان بيرم يكلمنى وفى لهجته رنة غضب وحنق وصوته لا أكاد أسمعه مما كان يقاسيه من آلام الربو اللعين.. وقلت له عد إلى فراشك ودفئك وسأتصل بالصحيفة أصحح لهم الوضع.

ويقول الشاهد أيضا: وقبل انتقال بيرم إلى رحمة الله وعلى وجه التحديد يوم ٥ يناير عام ١٩٦١، التقيت به يسير فى سوق التوفيقية متوكئا على غلام صبوح الوجه، جميل البسمة، فلما رآنى قال لى: ابن حلال، كنت سأتصل بك اليوم لتعرفنى على طبيب صديق لك قيل إنه ماهر فى علاج مرض الربو الذى هدنى منذ عشر سنين، فأجبته بأنى سأحدد له موعدا ثم أتصل به. وقدم لى الغلام فعرفت منه أنه ابنه محى الدين التلميذ الصغير، وسرت معه عدة خطوات ثم ودعته إلى لقاء سأحدده له.

وفى اليوم التالى عدت إلى منزلى فأخبرتنى السيدة حرمى أن

بيرم سأل عنى.. وقال أرجوك أن تتصل به الآن أو فى أى ساعة تصل إليها حتى ولو فى أى وقت من أوقات الليل فإن أزمة الربو اشتدت عليه.. ويريد الذهاب إلى الطبيب حتى يتمكن من لقاء آمال فهمى للاتفاق على فوازير رمضان. فاتصلت به على الفور فوجدته يعانى آلاما شديدة من أزمة ربو اعترته، فعرضت عليه أن أستحضر له طبيبا فى الحال، فقال إن المنزل غير لائق لاستقباله، وأنه يفضل الانتظار حتى تنتهى الأزمة ونذهب إليه معا.. واتفقنا بالفعل على تحديد يوم السبت ٧ يناير لزيارة الطبيب ولكن القدر كان أسبق من الموعد فلم تكد تمضى اليلة على حديثنا حتى فاضت روحه إلى بارئها مخلفة ورائها ثروة وكنوزا ستبقى على مر الأيام[١]

ولا ننسى فى هذا السياق أن نقف على شهادة زوجته التى قالت عن الأيام الأخيرة فى حياة بيرم: فى أواخر أيامه، اشتد عليه مرض الربو.. كان لا ينام كثيرا من ضيق التنفس الذى كان ينتابه كثيرا، ومن السعال الشديد، وبدأت صحته تتدهور بسرعة غريبة ثم رحل عنا فجأة.. ولم يترك لنا من شقى عمره أى شىء نعيش منه.

---

(١) بيرم التونسى كما عرفته محمد كامل البنا.

الفهرس

الاشتراكات

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهًا.
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.
- الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدمًا نقدًا أو بشيكات بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة

يصدر قريبا

الرئيس الذى لم يسرق
محمد ناصر

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ٤١٠١
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7750- 8

١ / ٢٠١٢ / ٥٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)